

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة مولود معمري - تيزي وزو -
كلية الآداب و العلوم الإنسانية
قسم الأدب العربي

مذكرة لنيل شهادة الماجستير

التخصص: اللغة و الأدب العربي

الفرع: تحليل الخطاب

إعداد الطالب:

علي - شرفه

الموضوع:

تلقي المثل في كتاب
" زهر الأكم في الأمثال و الحكم "
للحسن اليوسي

أعضاء لجنة المناقشة:

- 1-أ.د/ آمنة بلعلی ، أستاذة التعليم العالي ، جامعة تيزي وزو.....رئيسا
- 2-أ.د/ مصطفى درواش، أستاذ التعليم العالي جامعة تيزي وزو..... مشرفا و مقرا
- 3-أ.د/ خالد عيقون ، أستاذ محاضر(أ) جامعة تيزي وزو..... ممتحنا
- 4-أ.د/ سالم سعدون، أستاذ محاضر(أ) المركز الجامعي بالبويرة..... ممتحنا
- 5-أ.د/ علي حمدوش، أستاذ محاضر(ب) جامعة تيزي وزو.....ممتحنا

تاريخ المناقشة: 2011/12/26

إهداء

إلى:

أمي أميق الناس بصبرتي.

إلى:

إلى روح والدي الذي تجشم الصعاب في تعلمي.

إلى:

إلى زوجتي التي ظلت أبداً تدونني.

إلى:

ابني محمد شريف، وعيسى.

أهدي هذا العمل المتواضع.

إلى

(و تلك الأمثال نضربها للناس و ما يعقلها إلا العالمون)

العنكبوت

الآية:43

«...أما الأول وهو المثل ، فلا يخفى على ذي ميز ولا يشتهه على ذي لب ما جعل الله تعالى فيه من الحكمة ، وأودع فيه من الفائدة، وناط به من الحاجة».

-الحسن اليوسي-

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة:

اجتهد النقاد العرب قديماً في جمع الأمثال و تصنيفها و تبويبها و ترتيبها مثلما اجتهدوا في التعليق على أساليبها و مضامينها فقالوا عن المثل: إنه أوسع لشعوب الحديث في إشارة إلى اتساعه لشتى مناحي الحياة، كما أشادوا بحسن إيقاعه فقالوا: إنه أنق للسمع، و بينوا فضله و حسنه بكل ما أتوا من ملكة اللغة و قوة العارضة. كما عمل النقاد المحدثون و اجتهدوا كذلك في الاعتناء بهذا الشكل الأدبي الموجز في لفظه و البليغ في مضمونه و عملوا فيه فكرهم بالتأويل و التقويل و النقد و التحليل، حتى ليكاد الباحث أن يقول أن موضوع الأمثال مستهلك، و لا مجال لمزيد من البحث فيه. إلا أن طبيعة المثل تأتي و تتأبى ذلك، و كأنها بئر ماء كلما أخذ منها انبجس غيره، أو كأنه مجموع العلم الذي كل و عاء يضيق بما جعل فيه إلا و عاء فإنه يتسع. وكذلك نقدر أن يكون المثل فكلاً تقرب إليه بمنهج و كشف بعض أسرارها، إلا و وارى أسراراً أخرى لا يكشف عنها إلا بمنهج آخر و هكذا دواليك.

هذه إذن طبيعة المثل عامة، أما عن مصنف اليوسي الموسوم بـ " زهر الأكم في الأمثال و الحكم " و الذي هو موضوع بحثنا فإننا لم نعثر على الأقل في حدود ما وصلت إليه استقصاءاتنا على دراسة ملمة تتناول هذا الكتاب بالدراسة، بل لم نجد حتى من يشير إليه و لو محض إشارة، ناهيك عن دراسته و البحث فيه. و هذا الأمر لا يقتصر على الباحثين المبتدئين و لكن حتى عند الذين تصدوا لمثل هذه المصنفات بالبحث، الذين نادوا بإخراج كثير من كتب التراث من ضيق سجن المخطوط إلى سعة الطبع و التحقيق، و أعني بذلك الأستاذ و الباحث محمد حسين الأعرجي الذي حقق كتاب " الأمثال " لأبي بكر محمد العباس الخوارزمي، و هو أول مؤلف وُضع في أمثال المولدين. حيث أشار بالمناسبة إلى عدد من مصنفات الأمثال، و لكن بدون أدنى إشارة إلى هذا المصنف.

ظل الأدب المغاربي ردحا من الزمن دون قراءة علمية جادة، تبحث في خصوصيته

و هويته، و ما ذاك لضعف فيه و لكن زراية به، و من باب بخس الناس أشياءهم، بالرغم مما قدّمه للأدب العربي من إنتاج و فير. و من غريب الصدفة أن نجد اليوسي و كأنه تنبأ و استشرف

هذه الحقيقة عندما شبّه في معرض حديثه عن طبيعة الأمثال بالمغرب قائلاً: (وتتبع الحكايات يخرج عن الغرض؛ وإنما ذكرنا ما تقدم تنبيها على شدة اعتناء الناس بالتمثيل وعظم فائدته. وكان الحكماء الأولون مثلوا الدنيا بطائر رأسه المشرق وجناحاه اليمن والشام وذنبه المغرب فبينوا بهذا المثل دناءة المغرب وخسته، لأن أخس ما في الطائر ذنبه).

نشرت بحوث و دراسات عن الأمثال العربية و بمقاربات متنوعة، جمالية و بلاغية و أسلوبية، و لكن أياً منها لم يتناول بحسب علمنا بحثاً عن اليوسي ابتداءً، و لا من زاوية التلقّي انتهاءً.

لاحظت أستاذتنا في مادة منهجية البحث، و السيميائيات (أمنة بلّعلي)، و نحن في السنة التحضيرية، كثرة استعمالها للأمثال و استشهادي بها كلما عن لي موقف مناسب، فاقترحت علي أن أجعل المثل العربي موضوعاً لمذكرة الماجستير، و أن يكون ذلك من زاوية التلقّي فلاقى مني قبولا و ترحاباً. و قد كنت أنوي جعل كتاب جعل "مجمع الأمثال" للميداني مدونة لي إذ لم يفته في الشهرة كتاب ألف في الأمثال إلا أن إحدى الطالبات العاملات بمكتبة المعهد نبّهتني إلى وجود هذا الكتاب فألّفيته أحسن ما ألف إلى عصر اليوسي في الأمثال مع كونه لم يتم إذ عاجلت المنية صاحبه قبل اتمامه.

كتبنا للبحث تمهيداً رأينا ضرورياً و فاتحة لما يأتي من فصول و مباحث، فتناولنا فيه مفهوم المثل اللغوي و الاصطلاحي في كتب الأمثال، و فيه تعريف مفصّل للمثل من قبل العديد من الأدباء و النقاد، كما تناول فيه طبيعة المثل عند اليوسي، و تعريفاته المتعددة له، كما بيّنا من خلاله رأي اليوسي لطبيعة المثل و الحكمة، و كيف يتم تبادل الأدوار بينهما، كما تطرّفنا إلى إبراز رأي اليوسي فيما يخص وظيفة المثل، و المواقف التي تستدعي دمجها في دورة الخطاب الأدبي من خلال الاستشهاد و الاحتجاج به.

و في الفصل الأوّل (القراءة اللغوية) تناولنا قراءة اليوسي اللغوية و الغرضية للأمثال و هي قراءة شاملة استعمل فيها من المجسات النقدية من قراءة نحوية و صرفية و بلاغية و عروضية و التي أفضت مجتمعة إلى التوضيح الجلي لمعاني المثل، كما أفضت إلى جعل المتلقّي يتمتع بثقافة شاملة و واعية كنتيجة منطقية لما وضع بين يديه من الآليات النقدية و القرائية المتعددة.

كما تعرضنا فيه للمعاني المتعددة التي تنطوي عليها الأمثال، و التي تعبّر بعفوية عن كلّ ما يدور في المجتمعات و التجمعات البشرية.

تطرقنا في الفصل الثاني المعنون بمعاني الأمثال و أبرزنا فيه ما أشار إليه اليوسي من كون الأمثال تنطوي على العديد من المعاني الاجتماعية و الأخلاقية ، و التربوية، و من تقمصها و تمثلها لشؤون الحياة عامة.

أما الفصل الثالث المعنون بعلاقة المثل بالأجناس الأدبية، و بيّنا من خلاله علاقة المثل بالأجناس الأدبية إذ لاحظنا أنّ اليوسي يبيّن أنّ المثل يدخل في علاقة تناصية، و تفاعلية مع عدد من الأجناس الأدبية الأخرى، و بالأخص الشعر و القصة.

أما الفصل الرابع و الأخير المعنون بالقراءة السياقية فخصص لمفهوم هذه القراءة لدى اليوسي بمفهومها الشامل ، و أبرزنا فيه دور السياق لغويا كان أم غير لغوي في التعريف بالخلفية المعرفية المرتبطة بالمثل، و من ثمة دورها في عملية التواصل و الدلالة، كما ركّزنا على شخصية اليوسي ، و شخصيته الثقافية خاصة، لكونها أوّلا عنصرا مهما في دورة الخطاب، و لكونها ذات أفق توقع واسع، أو قارئنا ضمنا مثاليا، كان لها الدور الأبرز في إضاءة جميع الجوانب المظلمة في معاني الأمثال، و من ثمة إيصال الرسالة إلى الآخر المتلقي.

أما بالنسبة للمنهج المتّبع فهو المنهج الوصفي التحليلي في ضوء نظرية التلقي لأنّنا قدّرنا أنّ طبيعة البحث تقتضي ذلك. فالوصف يمكن من التعريف بالظاهرة و الإحاطة بها. و التحليل يسمح بتفكيكها، لإعادة تركيبها بما يخدم البحث، و كلّ ذلك باستغلال جمالية التلقي لدى اليوسي، التي أحالت المثل من مادة خام إلى منتج متقن الصنعة.

و قد استعنا بكتاب نظرية التلقي، أصول و تطبيقات لبشرى موسى صالح، و كتاب الأصول المعرفية لنظرية التلقي لناظم عودة خضر، و التلقي و السياقات الثقافية لعبد الله إبراهيم.

اعترضتنا صعوبات عدّة في انجاز هذا البحث و أكبر هذه الصعوبات هو قلّة حظنا و زادنا من النظريات و المناهج الحديثة. فطبيعة تكويننا في الثمانينات من القرن الماضي لم تمكننا من الإطلاع على هذه المناهج و النظريات، فكان لزاما علينا أن نعيد رسكلة أنفسنا و هو أمر يحتاج إلى جهد فكري و زمني، و هذا الأخير كان يعوزنا، إذ استهلك في مسؤوليات

أخر و منها مسؤولية التعليم، و مع ذلك استطعنا بعد لأيٍ و معاناة قراءة و اكتساب بعض العلم لا نراه كافياً لانجاز بحثٍ ممتاز بهذه الأهمية و في هذه المدونة.
أما المعوقات الأخرى، فتتمثل في المشكل السرمدي، و هو قلة المصادر و المراجع. و من ذلك أننا لم نعثر على رسالة واحدة تتناول المثل من زاوية التلقى و لاسيما كتاب اليوسي.

و إننا نزجي بالشكر الجزيل، و من صميم قلوبنا (فمن لم يشكر الناس لم يشكر الله) لكل الأساتذة الذين تحمّلوا عبء الإشراف علينا في انجاز هذا البحث، و أذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر مشرفي الأستاذ الفاضل مصطفى درواش الذي لم يبخل علي بمراجعه و توجيهات القيمة، و كذا الأستاذة الفاضلة آمنة بلّعلى التي كانت بمثابة المشرفة الثانية لي بما قدمته من نصائح و توجيهات. و الأستاذ الفاضل العباس عبدوش. و إلى كل أساتذة القسم الذين ندين لهم بالجميل و العرفان. و لا ننسى أيضا زملاءنا الذين شجّعونا، و شدّوا عضدنا لمواصلة هذا البحث بعد أن بلغ منا اليأس مبلغه و أقصاه.

و نحن مدينون لله عزّ و جلّ بما منّا علينا من الصحة العقلية و الجسدية، و في أحلك الأوقات، حتى أتينا على نهاية هذا البحث و الذي إن أصبنا فيه فمنه سبحانه، و إن أخطأنا فمن أنفسنا، و ما نبرّوها. و لله الحمد من قبل و من بعد.

الطالب:

علي شرفه

تمهيد

في المصطلح و الوظيفة و الإجراء

- 1- مفهوم المثل اللغوي و الاصطلاحي في كتب الأمثال.
- 2- طبيعة المثل عند اليوسي.
- 3- بين المثل والحكمة.
- 4- وظيفة المثل.

تعددت الأبحاث اللغوية والنقدية، التي تناولت المثل العربي بالدراسة والتحليل مستقصية عن قصته التفسيرية أو ما اصطلح عليه بالموارد ومنقبة عن مضربه، وإمكانات تطبيقاته، إلا أن تلك المباحث اقتصر جلها على الأمثال الشعبية، وهو ما صبغها بصبغة المحلية، وميزها بضيق الأفق.

حتى وإن وجدنا في الدراسات الحديثة من يتناول في بحثه المثل الفصيح، فإن أغلبها تحصيل حاصل أو شروح وحواش لمقاربات أو آراء تعرض لها التراثيون منذ بداية عصر التدوين، وهو ما يطبع الدراسات الأكاديمية الحديثة.

أما البحوث التراثية، فهي تقوم على الجمع والتصنيف أكثر من قيامها على التحليل فلا تكاد من ثمة تصنيف جديدًا، ولا تكاد تزيل غموضًا لنقترح وضوحًا.

لم يتسن لنا العثور على قراءة عنت بوحدة من تلك الدراسات أو بجملة منها أو بمجموعها فذلك ما لم يتحقق بالنسبة إلينا على الأقل في حدود بحثنا هذا، إذ لم نصادف و نحن نجتمع مادة بحثنا عملاً أكاديمياً يجعل من قارئ تلك الأمثال و شارحها مؤلفاً ثانياً أو لنقل عملاً يتناول المثل من زاوية التلقي، و كيف لا و اليوسي هو القائل في مقدمة كتابه، و المبرهن على قوله في متن هذا الكتاب «فكنت في ذلك شبه الواضع وإن سبقت، والمخترع وإن نقلت» (1).

يلاحظ أن الكاتب ليس مؤلفاً و جامعاً فحسب، بل هو مؤول لتلك

الأمثال، و مُصيرها من مادة خام إلى منتج متقن الصنعة، يفيد كل مطلع عليه بتوسيع معارفه و إثراء رصيده الثقافي، واضعا تحت تصرفه مفتاحاً يفتح به مجمل الأبواب الموصدة و يلج عبر فضاءات معرفية رحبة. فما كان لنا أن نقول ما قلناه لو لم نلمس في أفكار اليوسي و صياغته المجسدة في مقدمة كتابه و كذا بقية الفصول أساساً من المنطق و المنطقية، و هي الفكرة التي سنحاول التفصيل فيها عبر جملة من العناصر التي نرى فيها أهمية لاستنطاق ما هو مرتبط بتصوّر اليوسي و طبيعة تفكيره.

1 - الحسن اليوسي، زهر الأكم في الأمثال والحكم ج:1 ص:16 تح: محمد حجي و محمد الأخضر، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط:1 (د.ت).

1- مفهوم المثل اللغوي و الاصطلاحي في كتب الأمثال:

أورد الميداني آراء عدد من اللغويين و النقاد في محاولة وضع تحديد للمثل ، و بماذا يتميز و كيف يُتداول منها قول المبرد: ((المثل مأخوذ من المثل، وهو قول سائر يشبهه حال الثاني بالأول والأصل فيه التشبيه، فقولهم: مثل بين يديه إذا انتصب، معناه أشبه الصورة المنتصبة وفلان أمثل من فلان، أي أشبه بما له الفضل، والمثل القصاص لتشبيهه حال المقتص منه بحال الأول. فحقيقة المثل ما جعل كالعلم للتشبيه حال الأول كقول كعب بن زهير:

كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً وما مواعيدها إلا الأباطيل

فمواعيد عرقوب علم لكل ما لا يصح من المواعيد)) (2)

وقال ابن السكيت: « المثل لفظ يخالف لفظ المضروب له، ويوافق معناه معنى ذلك اللفظ شبهوه بالمثل الذي يعمل عليه غيره)) (3) و أضاف وقال: ((غيرهما سُميت الحكم القائم صدقها في العقول أمثالاً لانتصاب صورها في العقول ». (3)

وقال إبراهيم النّظام: ((يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام:

إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه وجودة الكناية، فهو نهاية البلاغة)) (4)

وقال ابن المقفّع: « إذا جُعِلَ الكلام مثلاً كان أوضح للمنطق و آنق للسمع وأوسع

لشعوب الحديث ». (5)

قلت أربعة أحرف سمع فيها فعل وفعل وهي مثل ومثل وشبهه و شبه وبدل و بدل ونكل و نكل فمثل الشيء ومثله وشبهه و شبهه ما يماثله قدرًا وصفة وبدل الشيء وبدله غيره ورجل نكل ونكل و نكل فمثل الشيء ومثله وشبهه و شبهه ما يماثله قدرًا وصفة وبدل الشيء وبدله غيره ورجل نكل ونكل للذي ينكل به أعداؤه ، و فعيل لغة في ثلاثة من هذه الأربعة يقال هذا مثيله وشبيهه وبديله ولا يقال نكيله، فالمثل ما يمثل به الشيء أي يشبهه كالنكل من ينكل به عدوّه غير أن المثل لا يوضع في موضع هذا المثل، وإن كان المثل يوضع موضعه كما تقدّم للفرق. فصار المثل إنّما مصرحاً لهذا الذي يضرب ثمّ يرد إلى أصله الذي كان له من الصّفة فيقال مثلك ومثل

1- أبو الفضل أحمد بن حمد النسا بوري (الميداني)، مجمع الأمثال، دار مكتبة الحياة بيروت، 1985 - ص: 13.

2- المصدر نفسه ص: 14.

3- المصدر نفسه.

4- المصدر نفسه.

5- المصدر نفسه.

فلان أي صفتك وصفته ومنه قوله تعالى ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون﴾ أي صفتها. ولشدة امتزاج معنى الصفة به صح أن يقال جعلت زيدياً مثلاً والقوم أمثالاً، ومنه قوله تعالى ﴿ساء مثلاً القوم﴾. جعل القوم أنفسهم مثلاً في أحد القولين والله أعلم⁽¹⁾.
إن هذا التعريف الذي أورده الميداني:

- 1- اعتمد بالدرجة الأولى على أقوال سواه أمثال المبرد و ابن السكيت و إبراهيم النّظام ولم يورد تحديده هو إلا بعد التمهيد له بتعاريف من سبقه.
- 2- أنّ جلّ التعريفات قاربت المثل بالتّعريف اللّغوي والبلاغي أو الأسلوبي على أحسن تقدير باستثناء تعريف ابن المقفع الذي تطرّق إلى بعض خصائص المثل، لكنّه كان شديد الإيجاز لا يكاد الناظر فيه يعرف المقصود منه، ولا يتأتى ذلك إلا بعد شرحه. والحاصل أنّ هذه التعريفات مجتمعة لا تفي بالحاجة عن حقيقة المثل. أما أحمد الهاشمي فإنّه يقترح محاولة لضبط المثل من حيث هو نتاج أقسام و شروط مكوّنة: «المثل تأليف لا حقيقة له في الظاهر وقد ضمّن باطنه الحكم الشّافية وهي ثلاثة أقسام: مفترضة ممكنة- ومخترعة مستحيلة - ومختلطة:
 - 1 - الأمثال المفترضة الممكنة: هي ما نسب فيها النطق والعمل إلى عاقل.
 - 2 للمخترعة المستحيلة: ما جاءت على ألسنة الحيوانات والجمادات فيعزى لها النطق والعمل لإرشاد الإنسان.
 - 3 للمختلطة: ما دار فيها الكلام أو العمل بين الناطق وغير الناطق.

ثم يضيف:

وشروط المثل أربعة:

الأول: أن تكون روايته خالية من كلّ تعقيد ليفضي المقصود منه إلى ذهن السّامع.

الثاني: أن لا يكون مشبهاً مملاً.

الثالث: أن يبهج السّامع بطلاوته ويفكه فكرته بهزل كلامه وابتكار معانيه، ويضبط عقله في فهم الرّواية المختلفة وفضّ مشكلها.

الرابع: أن يصوّر بصورة محتملة.

ثم يتابع قائلاً: «وفوائد المثل جمّة، منها نزهة البال، وترويح خاطر ومنها استقصاء الحكم وهي قديمة العهد جدّاً، ولا يعرف اسم أوّل من تكلم بها، وكما تكون نثرًا تكون نظمًا»⁽²⁾.

1- ينظر الميداني في "جمع الأمثال" ص: 14.

2- أحمد الهاشمي، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء العرب، تح: لجنة من الجامعيين مؤسسة المعارف، بيروت (د.ت)، ص: 288، 287.

على الرغم مما يبدو في تعريف الهاشمي من فرق بينه وبين التعريفات السابقة التي سبقت الإشارة إليها من حيث استحضر الجديد، إلا أنه لا مناص في اعتقادنا من إيراد الملاحظات التالية:

إن قوله: (المثل عبارة عن تأليف لا حقيقة له في الظاهر) نراه غامضاً لأنه يمكن أن يفهم من قوله: (تأليف لا حقيقة له في الظاهر) أن قائل المثل مجهول ، لكنّ المسألة تستدعي احتراساً إذا ما علمنا أن أكثر الأمثال يُعرف قائلها، بل وأدق تفاصيلها.

لا ينطبق الشرط الذي وضعه الهاشمي للمثل مع ما كان شائعاً عند العرب، ففي قوله واصفاً الأمثال: (خالية من كلّ تعقيد) وكأنّه وضع جانباً جملة من الأمثال المتداولة عند العرب عبر العصور و هي أمثال أقرب إلى الطلاسم والألغاز منها إلى الكلام العادي المتداول، سواء من حيث لفظها أو من حيث معناها.

أما الشرط الثاني الذي اشترطه للأمثال (أن لا يكون مسهباً مملاً)، فلا ينطبق على كثير من الأمثال، سواء ما تعلق منها بالأمثال الشعريّة التي يستغرق المثل منها البيت الكامل، أو البيتين وأكثر، أو ما تعلق منها بالأمثال القرآنية التي يبلغ فيها ضرب المثل الآية، أو الآيات ولعل الكاتب كان متأثراً في هذه النقطة بالذات بالتعريفات النمطية للأمثال من كونه قولاً موجزاً ولأنّ الإيجاز هو السمة الغالبة على لفظ المثل، لكن ذلك لا يمنع من وجود استثناءات من أمثال مسهبة في الطول.

من الشروط التي وضعها للمثل كذلك، حسن اللفظ، وإلا فإنّ ثمة أمثالا في الواقع لا تكاد تستساغ ألفاظها، وجدت و تدولت في المجتمع الجاهلي، و قد يكون لعامل اللهجة دخل في تحقق حسن اللفظ. ضف إلى ذلك ما قيل عن التلقائية في المثل، فحسن اللفظ يستتبع التلقائي و التروي قبل إطلاق المثل، بينما أغلب الأمثال قيلت بشكل عفوي، ولعلّ قائل المثل لم يدر أن كلامه سيتحوّل يوماً إلى مثل يتداوله الناس، و تلهج به الألسن.

- يبقى الشرط الرابع الذي وضعه الهاشمي نسبياً إلى درجة معينة، إذ إنّ عبارته: (أو يورد بصورة محتملة) تفرض علينا مساءلة الدارس بأن نقول له: ما المقصود (بكلمة محتملة؟) أيقصد بها بأنّ مستعمل المثل -لغاية الاستشهاد أو الحجاج- أن يكيّف مثله مع الحاضر، و كلّ علم بأنّه ينبغي أن يخضع كلامه مع الموقف الذي قيل فيه المثل لأول مرّة؟ فهل المقصود بالاحتمال هنا تكييف الحاضر مع الماضي، أم العكس؟

ثمة ملاحظة أخرى يمكن استنتاجها من بحث الهاشمي عن فوائد المثل حين يرى فيه نزهة البال و يعدّه ميدانا لاستقصاء الحكم. أما الفائدة الثانية فلا نعتقد أنّ فيها ما يثير النقاش و من ثمّ الاختلاف-فالمثل يدعونا حقيقة إلى البحث عن الحكم المتضمنة فيه. أما الفائدة التي جعل فيها المثل وسيلة للترويح عن النفس، فنعتقد أنّ الأمر يستدعي التنبه إلى ما التزمت به العرب من جدية و هي تقول الأمثال، إنّ المثل عندها قرين الجدّية و الانضباط، لا الهزل و الانبساط. و إذا ما استثنينا الألبان و الأحاجي التي تذكي العقول، و ترفه النفوس، فإنّه حريّ بنا أن نقول إنّ المثل عند العرب لم يكن في أغلبه إلا لاستخلاص العبر و الدروس، و هو ما تأكّد في القرآن الكريم أكثر من ذي قبل، حين قال في معرض محاكاة الجاحدين تارة، و في معرض دعوة البشر إلى التّعقل تارة أخرى ﴿و ضربنا لكم الأمثال﴾ سورة إبراهيم، الآية:45. ثم إنّ الهاشمي لم يقترح و لو مثلا واحدا يبرهن به على هذا المرح الموجود في الأمثال.

إنّها نقاط أثرتنا الوقوف عندها لأهميتها، و بغية مقارنتها لاحقا بما عند اليوسي و لأنّ الأمثال رافقت شعوب العالم منذ تاريخ حياتها فإننا لا نرى حرجا في العودة إلى أحد المعاجم الفرنسية قصد إيراد ما فيه من تعريف خصّ به المثل :

حيث يُعرّف قاموس "روبير الصغير" (Le petit Robert) المثل كما يلي: « صيغة تتسم بالصدق، غالبا ما تكون مجازية، و هي تعبر عن حقيقة معيشة أو نصيحة وليدة تجربة شعبية جماعية داخل فئة اجتماعية محددة»⁽¹⁾.

و عرّف عدد كبير من الأدباء الغربيين القدامى منهم و المحدثون بعبارة شتى تبرز الاهتمام الكبير الذي حظي به هذا الشكل الأدبي الطريف من اهتمام على مدى العصور و الأزمان حيث يقول جان بينو:

- « المثل صيغة مسكوكة بدقة، و لها عموما شكل استعاري يعبر بواسطته الذكاء الشعبي عن تجربته في الحياة».⁽²⁾

- « يبدو المثل واضحا بوصفه التعبير عن فكرة معينة بواسطة صورة ما، إنّ إحداها تعوّض الأخرى اعتمادا على علاقة مشابهة، و هذا عينه هو تعريف الاستعارة»⁽³⁾

- « المثل إذن هو صورة»⁽⁴⁾

1- Nouveau petit Robert / VUEF, 2001. 27, Rue de la glacière, Paris Le petit Robert 1

2-فرانسو مورو، البلاغة/ المدخل لدراسة الصور البيانية، ترجمة محمد الولي و عائشة حرير، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء 2033، ص:51.

3-المرجع نفسه، ص:51.

4-المرجع نفسه، ص:51.

- «المشكل الوحيد الذي يطرحه المثل أمام دارس الأسلوب هو طراوته»⁽¹⁾.
 - «تعبّر غالبا العبارة المثلية في صيغة مبالغة عن كون الموضوع يتسم بخصلة أو رذيلة ما بالقدر البالغ أقصى الحدود»⁽²⁾
 - إن دارس الأسلوب : « يجب أن يعتني بالعبارات المثلية التي هي على وجه الخصوص تشبيهات.... هي شديدة الاقتراب من الاستعمال المعجمي»⁽³⁾
 - يقول أرسطو: « إن الأمثال هي أيضا استعارات الجنس للجنس ، و على سبيل المثال ، فإن التمس شخص من آخر العون مقابل مكافأة ما، و إذا لقي هذا الأخير بدل الإحسان العقاب فإنه يقول: إنه (مثل قاطن كرباتوس مع أرنبه) فهما معا كانا ضحيتين لنفس المغامرة المخيبة»⁽⁴⁾.

إن مستعرض مجمل هذه التعريفات يجد تقاربا شديدا مع تعاريف مرت علينا لأدباء عرب و هو كون السمة الغالبة للمثل هي الإيجاز، هذا من الناحية الشكلية، أما من حيث المضمون فأهم ميزة للمثل هي غناه بالصور البيانية خاصة الاستعارة و الكناية اللتان لا تكادان تفارقنه، و هو ما يؤدي دورا هاما في تحسين الناحية الأسلوبية.

2- طبيعة المثل عند اليوسي:

جاءت نظرة اليوسي إلى المثل متعددة الزوايا، فلمس حضورا للبلاغة و الأسلوبية والنحو و الصرف و المنطق في كل ما قاله عن كلمة المثل و مشتقاتها المتفرعة عنها. سنحاول الوقوف عند ذلك التعريف مكتفين فقط بإيراد أهم ما فيه من عناصر:

يرى اليوسي: « أن المثل يرد على ثلاثة أضرب:

الضرب الأول: الشبه، يقال: « هذا مثل ذلك » أي شبهه، و يقال أيضا: « هو مثله بكسر فسكون ومثله، كما يقال شبه وشبهه وشبيهه » فإذا قيل: « هو مثله، وهم أمثالهم بالتصغير » فقد أريد أن المشبه حقير، كما أن هذا حقير - ومنه الأمثل من الناس وهو الأفضل ، لأن معناه الأشبه بالأفاضل والأقرب إلى الخير، وأمائل القوم: خيارهم - قال تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ مُتْلَهُمْ طَرِيقَةً - وَيَذْهَبُ بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُتْلَى ﴾ أي: التي أشبهه بالحق والفضيلة، وهي تأنيث أمثل - ونقول متلنت

1- المرجع نفسه، ص: 51.

2- المرجع نفسه، ص: 52.

3- المرجع نفسه، ص: 52.

4- المرجع نفسه، ص: 52، 53.

الشيء بالشيء: إذا شَبَّهته به تمثيلاً وتمثالاً بفتح النَّاء، كالتَّيسار والتَّطَوَّاف (1) وأما التَّمثال بالكسر: فالصُّورة المصوَّرة، جمعها تماثيل - يقال: مَثَّلَهُ له أي صوَّره له حتَّى كأنه ينظر إليه - وتمثل: تصوَّر. قال تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ (2) وتماثل الشَّيْئان: تشابها، ومَثَّلُ الشَّيْء مقداره وقولهم: مثَّلت بفلان مُثَلَّةً، ومَثَّلت به تمثيلاً: أي: نكَّلت به وأوقعت به عقوبة، من هذا لأنَّ معناه أنَّه جعله مِثَالًا يَرْتَدِّعُ به الغيرُ.

الضرب الثاني: الصَّفوة: قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾، أي صفتها ونحو هذا، وهو كثير في القرآن - وقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَ اللَّهُ المَثَلُ الأَعْلَى﴾ (3) أي لهم الصِّفَات الذَّميمة وله الصِّفَات العُلَى.

الضرب الثالث: القول السَّائر المشبه مَضْرِبُهُ بمَوْرِدِهِ وعلى هذا الوجه ما ضرب الله تعالى من الأمثال في القرآن، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ (4) وعلى هذا شاع إطلاق اسم المثل إذا أطلق». (5).

نلاحظ أنَّ تعريف اليوسي للمثل خضع في مرحلته الأولى للغة و الاصطلاح، كما جاء حاملاً لدلالة الصِّفة و التشبيه و لا يقف الأمر عند هذا الحد، بل يعمد إلى الاستشهاد بأقوال اللغويين والنحويين، ويضيف إلى تعريفهم تعارف أخرى وصل إليها بفكره ومنطقه، حيث يستشهد بقول الراغب وبغيره ممن لا يأتي على ذكر أسمائهم: قال الراغب: «المثل: يقال على وجهين: أحدهما بمعنى المثل، نحو: شَبَّه وشَبَّه، ونقض ونقُض، قال بعضهم: وقد يعبَّر بهما عن وصف الشيء، نحو قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ.....﴾ الآية. والثاني: عبارة عن المشابهة لغيره في معنى من المعاني، أي معنى كان، وهو أعم الألفاظ الموضوعية للمشابهة. وذلك أنَّ النَّدَّ يقال فيما شاركه في الجوهرية، والشكل يقال فيما شاركه في المساحة والشَّبه يقال فيما شاركه في الكيفية فقط، والمساوي يقال فيما يشاركه في الكميَّة فقط. والمِثْلُ عام في جميع ذلك ولهذا إنَّما أراد الله تعالى نفي التشبيه من كل وجه خصَّه بالذكر فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (6)

1- زهر الأكم. ج: 1ص: 19.

2- سورة مريم، الآية: 17.

3- سورة طه، الآية: 63.

4- سورة العنكبوت، الآتي رقم: 43، و سورة الحشر الآية: 63.

5- زهر الأكم. ج: 1ص: 19.

6- سورة الشورى، الآية: 11.

ما يلفت الانتباه هنا هو دقة ملاحظة اليوسي، ودرابته بعلوم اللغة إذ لم يكتفِ بمعنى واحد للمثل، بل تعداه إلى معان متعددة، وبيّن أنّ ما سواه من المرادفات إنّما يعني صفة واحدة فقط بينما تضم كلمة المثل مجموع تلك المعاني والصفات.

يتابع اليوسي كلامه عن المثل قائلاً: « وذكر غيره أن المماثلة هي المساواة من كل وجه والمشابهة في أكثر الوجوه والمناظرة هي المساواة من كل شيء من الوجوه ولو في واحد فكون كل واحد من هذه الألفاظ الثلاثة أهم مما قبله- وكل ذلك مخالف لما في متون اللغة من تفسير المثل بالشبه، والعكس كما أوردناه قبل. مخالف لظاهر صنيع البلغاء في باب التشبيه حيث قسّموا أوجه الشبه إلى ما يرجع إلى الشكل، وما يرجع إلى المقدار، وما يرجع إلى الكيفية وغير ذلك، وسموا كل ذلك تشبيهاً وهو من الشبه، والأمر في هذا قريب. إذا عرفت هذا فاعلم أنّ مقصودنا من المثل بالذات في هذا الكتاب هو ثالث الأقسام وهو المثل السائر»⁽¹⁾

إنّ اليوسي راح يُسهب في تعريف المثل منتقداً في الوقت ذاته واضعي المعاجم الذين يرى أنّهم اختصروا معنى المثل و اختزلوه في دلالة واحدة لا تعدو أن تكون الشبه. و مقابل ذلك التفريط يظهر مقصوده من المثل، حتى لا يضيع المتلقي بين مجموع تلك التعريفات التي سبقت الإشارة إليها، فجعل يتحدث عن المثل السائر الذي يقول مبيّنًا إنّ له كذلك تعريفات كثيرة: «وللناس في تعريفه عبارات، فقل ما مرّ من أنّه القول السائر المشبه مَضْرِبُهُ بموردِهِ وقيل هو قول مركب مشهور شُبّه مَضْرِبُهُ بمورده، وهما بمعنى. فقيد السائر والمشهور يخرج ما لم يشتهر ويسر من الأقوال كلّها وقيل تشبيه المضرب أي المحل الذي ضرب فيه الآن بالمورد أي المحل الذي ورد فيه أوّلا يخرج ما اشتهر ولم يقع فيه هذا التشبيه لكثير من الحكم والأوامر والنّواهي الشرّعية مثلاً. وقيل المثل هو الحجّة وهو صحيح لأنّه يحتج به كما سيتبين في فائدته»⁽²⁾

قد وضع اليوسي المسلمات جانباً، وعمد إلى تمحيص كلام غيره وتحليله واضعاً إيّاه تحت مجهر الفحص و الشرح، فنراه لا يستسيغ القاعدة التي يُجعل المثل على أساسها مرهوناً بصفة (السائر) لأنّ المثل ما لم يشتهر و يسري في رأي أولئك لا يُعدّ مثلاً، و كأنّ مقياس الجودة هي الشهرة و كثرة التداول كما لا يبدو اليوسي موافقاً على عنصر (المورد)

1- زهر الأكم ج:1ص:20.

2- المصدر نفسه.

و (المضرب)، إذ يحدث ألا يحصل تشابه بين مقامين متباعدين مكانا و زمانا، و على الرغم من ذلك يُطلق القول ذاته (أي المثل) في الحالتين، و خلاف هذا الرّفص الذي طبع موقف اليوسي في تعامله مع ما سبق إلى حدّ الآن من عناصر مرتبطة بالمثل، قال بها آخرون فإننا نراه يوافق، و كلّ ثقة على القاعدة التي تجعل من المثل حجة، و هو ما يصلح في اعتقاده أن يُدرج ضمن فوائد المثل، و يصلح في اعتقادنا أن يجعل اليوسي ضمن حلقة أو لائك الدارسين الذين مهدوا لمسألة الحجاج، التي كثر الحديث حولها اليوم ولكن اليوسي يزكي من قال إنّ المثل حجة، ولكن أرجع ذلك إلى فائدة المثل أكثر منه تعريفا للمثل.

لا يطمئن اليوسي إذن إلى تعريف واحد أو إلى شخص دون آخر، بل إنه يقترح تعاريف متعددة محتكما في كلّ ذلك إلى العقل (المنطق) و الواقع و بانيا تعريفه في النهاية على ما يراه مناسبا في جملة ما قاله سواه من النقاد، ليصوغ بعد كلّ جولة من تلك الجولات الاستكشافية-إن صحت العبارة-تعريفا أقرب ما يكون إلى توجّهه العقلي و الواقعي.

يقول دائما في سياق سعيه لتحديد المثل مستشهدا بقول المرزوقي: «المثل جملة من القول مقتضبة من أصلها أو مُرسّلة بذاتها، تتسم بالقبول وتشتهر بالتداول فتنتقل عما وردت فيه إلى كل ما يصح قصده لها من غير تغير يلحقها و عما يوجبها الظاهر إلى أشباهه من المعاني. ولذلك تضرب وإن جهلت أسبابها التي خرجت منها، و استجيز من الحذف مضارع ضرورات الشّعْر فيها ما يستجاز من سائر الكلام» و كأنه مطمئن لتعريف المرزوقي الذي يتخيّر من المصطلحات ما ينطبق و منطبق المثل و واقع حاله، حيث أنّ القول المقتضب غير القول الموجز، فقد يقول قائل كلاما مطوّلا ولكن لا يُقتضب منه إلا بعض الكلام الذي يصح أن يضرب مثلا وهذا الاقتضاب إما أن يكون أصليا أو صناعيا، أي متصرفا فيه، ثمّ إنّ ميزة المثل أن يقع موقعا حسنا في النفس ولذلك تلهج به الألسن، فإذا لهجت به وأكثرت من استعماله وتداوله أصبح أكثر شيوعا و تداولا و تبنيا.

يأتي قول المرزوقي، الذي عمد اليوسي إلى إيراده، مُصححا لمصطلح المضرب الذي كان محل إقحام بعض الدارسين، فدلالة الكلمة هي أنّ (تضرب و إن جهلت أسبابها التي خرجت منها). فليس على مستعمل المثل أن يبحث عن قصته التفسيرية إذا اطمأنّ إلى حقيقة مطابقة لذلك المثل لمقتضى الحال، الذي هو فيه. ليست الغاية هي مجرد إسقاط ما هو في الماضي على ما هو في الحاضر أي أنّ العبرة، ليست بإحداث المشابهة بين القصص الواقعة و القصص الطارئة، إنّما بالموافقة و المطابقة و الاستجابة لمنطق الأشياء.

يوصل اليوسي تعريفه مستشهدا بكلام الراغب: « المثل: عبارة عن قول في شيء يشبه قولاً في شيء آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوره، نحو قولهم « الصيْف ضعت اللبْن»⁽¹⁾ و يردف هذا الكلام بكلام يضمّنه سائر التعريفات الأخرى ليخرج بتعريف شامل واسع مُلخّص لمجموع كل ما سبق الحديث عنه. يقول:

« قلت: وتلخيص القول في هذا المقام أنّ المثل هو قول يرد أولاً لسبب خاص، ثمّ يتعداه لأشباهه فيستعمل فيها شائعاً ذائعاً على وجه تشبيهها بالمراد الأول، غير أنّ الاستعمال على وجهين:

أحدهما: أن يكون على وجه التشبيه الصريح سواء صرّح بالأداة كقولهم: كمجير أم عامر أو لم يصرّح كقولهم: تركته ترك الصبي ظله، وهو كثير.

الثاني: أن لا يكون وجه التشبيه الصريح كقولهم: (الصيْف ضيّعت اللبْن) وقولهم: هان على الأملس ما لاقى في الدبر ونحو ذلك، وهو أكثر من الأول. أما الوجه الأول فهو تشبيه من التشبيهات إلا أنه سار و ذاع في بابه فعدّ مثلاً سائراً لما عرفت من أنّ التشبيه كلّ تمثيل. ومن ثمّ نجد قدام اللغويين وأهل العربية يطلقون المثل على المجاز* ويقيدون ما كان سائراً منه بالمثل السائر أو بأنّه من أمثال العرب ليفهم ذلك.

وأما الوجه الثاني فهو في مورده لا تشبيه فيه، ولكن يستعمل في مضاربه على وجه تشبيهها بالمراد من غير تصريح (بالتشبيه)، بل أن يستعار اللفظ المستعمل في المراد الأول للشيء الشبيه بذلك، فقول القائل أوّلاً للمرأة التي طلقها: الصيْف ضيّعت اللبْن لا يريد تشبيهها أصلاً وإنما أراد أنك فرطت في اللبْن وتسببت في ضياعه زمن الصيْف، إذ كنت تطلبين فراقي. ثمّ إنك أنت اليوم إذا رأيت أحداً فرط في حاجة زمن إمكانها، ثم جعل يطلبها وقد أدبرت، ساغ لك أن تشبه هيئته بهيئة من ترك اللبْن أو محله في وقت، ثمّ جعل يطلبه في وقت آخر، فنقول له لأجل هذه المشابهة: الصيْف ضعت اللبْن أي حالتك هذه حالة التي قيل لها: (2) الصيْف ضعت اللبْن ولأجل هذا المعنى وهذا التقرير، تتقلّ لفظ المثل كما قيل أوّلاً من غير تغيير، حتى أنك في هذا المثل بعينه تكسر التاء في ضيّعت وإن كنت تخاطب ذكراً وكذا سائر الأمثال، يسمى عند الأدباء استعارة تمثيلية، ويسمى التمثيل على سبيل الاستعارة

1- زهر الأكم، ج: 1، ص: 21.

* ربط اليوسي المثل بالبلاغة ربطاً عضوياً حيث بين أن علماء العربية القدامى أطلقوا عليه اسم المجاز، فهو إما استعارة أو كناية أو تشبيه، أي أنّ المثل مجاز بالمعنى العام والواسع لكلمة المجاز، ولم نعثر على هذا التعريف الجامع للمثل عند غير اليوسي في حدود ما وصلت إليه تحرياتنا.

2- م. ن، ص: 22.

وهي أحد قسمي الاستعارة التصريحية التي هي أن تشبه شيئاً بشيء، ثم تنتقل لفظ المشبه به وتطلقه على المشبه إطلاقاً كأنه وضع له من غير تصريح بالتشبيه ولا المشبه به على وجه يشعر بالتشبيه⁽¹⁾.

عمد اليوسي في تعريفه المطول هذا إلى تلخيص ما اطلع عليه من تعاريف للمثل وراح يملأ مجموع تلك الفجوات التي تركها سواه من النقاد منتهجا في ذلك نهجا محكما: حيث بين أولاً أن المثل تشبيه ينقسم إلى قسمين (قسم يُستعان فيه بأداة و قسم لا يُستعان فيه بأداة). ثم عدّ ذلك التشبيه استعارة تمثيلية في مسألة الانتقال من المورد إلى المضرب، ليصل إلى نتيجة مفادها أن المثل في صيغته الشكلية ثابت، لا يقبل التغيير و التحريف، ثم وضع أسئلة افتراضية من شأنها أن تدور في خلد من يتلقى كتابه و لأنه ممن يتوقع تدخل القاريء كعنصر فاعل في عملية إنتاج المعنى و كذا تأويله، صاغ- أو بالأحرى اقترح- إجابات لمجموع تلك الأسئلة و قد ارتأينا أن نعيد النص الذي لمسنا فيه قدرة اليوسي على تفكيك المادة المعرفية التي هو بصدها و تركيبها بعد ذلك.

يوضح سبب عدم جواز إحداث تغيير على المثل، لأنه نُقل على سبيل الاستعارة فلا ينبغي- حتى على مستوى الأخلاقي- أن نستعير شيئاً ما قصد إظهار صفة معينة أو تأكيدها لنلجأ بعد ذلك إلى تغيير جوهر ذلك الشيء، لأننا إن فعلنا ذلك نكون قد انحرفنا عن مسعانا الأصلي و ابتعدنا عن مقصدنا الأول. وعن حقيقة وجود مورد مهما يبلغ جهل الناس بقصته التفسيرية كما هو الحال في العصر الجاهلي حيث كانت الثقافة الشفاهية عاملاً من عوامل تناقل المثل و سبباً من أسباب ضياعه في الوقت ذاته. انعدام وجود قصة حقيقية للمثل تكشف لنا عن مورده لا يعني عند اليوسي فقر ذلك المثل إلى ما هو هام فيه، ألا و هو المورد، بل إنه يؤكد في أكثر من موضع في كتابه على حتمية وجود حادثة قيل على إثرها المثل لأول مرة و هي الحادثة التي سنتكرر مع مرور الزمن و تغيير المكان، بشرط تحقق علاقة مشابهة بين الوضع الأصلي، أي المورد، و الوضع المماثل له، أي المضرب، فالتشبيه يستدعي قيام علاقة مشابهة بين مشبه به سابق و مشبه لاحق من منظور بلاغي صرف.

1- زهر الأكم، ج:1 ص:23.

ينقلنا اليوسي بعد ذلك إلى العنصر الثاني المشكل لحقيقة المثل، فيعرف الضرب في عبارة (ضرب مثلاً). يقول مفصلاً: «ضرب الشيء مثلاً، وضرب به، وتمثله، وتمثّل به» ومعنى قول بعضهم: ضرب المثل اعتبار الشيء بغيره وتمثيله به. وفسّر المفسرون ضرب المثل الواقع في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا﴾⁽¹⁾. وقوله: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس﴾⁽²⁾ بالتبيين والجعل والوصف. وفي الكشف: ضرب المثل: «اعتماده وصنعه». قال بعضهم: «ضرب المثل اعتبار الشيء بغيره وتمثيله به. وفسّر المفسرون ضرب المثل الواقع في قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَس... أَن يَضْرِبَ مَثَلًا» الآية وقوله: «وتلك الأمثال نضربها للناس»، بالتبيين والجعل والوصف».

قال الراغب: «الضرب: إيقاع شيء على شيء، وبتصوّر اختلاف الضرب خولف بين تفاسيرها، كضرب الشيء باليد والعصا ونحوها، وضرب الأرض بالمطر، وضرب الدرهم اعتباراً بضربه بالمطرقة، وقيل له الطبع اعتباراً بتأثير السكة فيه، وبذلك شبه السجية فقيل لها الضريبة والطبيعة، والضرب في الأرض الذهاب فيها وهو ضربها بالأرجل، وضرب الفحل الناقة تشبيها بالضرب بالمطرقة، كقولك: طرقها تشبيها بالمطرقة، وضرب الخيمة لضرب أوتادها بالمطرقة. وتشبه بضرب الخيمة قال تعالى ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ﴾⁽³⁾ أي التحفتهم الذلّة التحاف الخيمة بمن ضربت عليه. ومنه استعبر: ﴿فَضْرِبْنَا عَلَى آذَانِهِمُ فِي الْكَهْفِ﴾⁽⁴⁾. وضرب اللبن بعضه ببعض بالخلط، وضرب المثل من ضرب الدراهم، وهو ذكر شيء أثره يظهر في غيره. قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا﴾⁽⁵⁾

وفي: ضرب المثل مأخوذ من الضريب أي المثل، تقول: هو ضريبه، وهما من ضرب واحد لأنه يجعل للأول مثل وقيل: من ضرب الطين على الجدار، وقيل: من ضرب الخاتم ونحوه لأنّ التطبيق واقع بين المثل ومضربه كما في الخاتم على الطابع»⁽⁶⁾

1- البقرة: الآية 26.

2- الحشر: الآية 21.

3- البقرة: الآية 61.

4- الكهف: الآية 11.

5- التحل: الآية 75.

6- زهر الأكم: ج1: ص: 25-26.

هنا يصل كلام اليوسي حول المثل إلى نهايته لينتقل بعده إلى الحديث عن الحكمة، و بما أننا لم نضع هذا الموضوع الثاني الهام موضع مركزي في بحثنا فإننا سنكتفي بالوقوف عند النقطة التي راح اليوسي يقارن فيها بين المثل والحكمة، لكننا قبل ذلك سنحاول فيما يلي أن نشير إلى النتائج التي خلصنا إليها من حديث اليوسي عن تعريف المثل بصورة مفصلة و بصيغة مطوّلة:

1- إنه عرّف المثل تعريفاً شاملاً، وذكر أنه يكون:

- بمعنى الشبه، ثم قلب تلك الكلمة على عدّة وجوه، موظفا معرفته النحوية والصرفية و علم المنطق، ومستشهداً بالقرآن الكريم.

- بمعنى الصّفة: وضرب أمثلة من القرآن لتدعيم رأيه.

- معنى القول السّائر: وتشبيها بالأمثلة المضروبة في القرآن.

ثم إنّ اليوسي عمد إلى دعم آرائه مستشهدا ببعض أساطين اللّغة أمثال الراغب الأصفهاني و أكد من خلال هذا الاستشهاد على قضية بالغة الأهمية لا نكاد نجد لها حضورا في حدود اطلاقنا عند آخرين ممن اهتموا بالأمثال، وهو أنّ ملفوظ (المثل) يكتسي عنده طابعا أهم و أشمل من كلّ ما يصاحبه من مرادفات، كما هو الحال مع اللدّ و الشكل و الشبه و المساوي التي يُقصد بها، وفق هذا الترتيب: المشاركة في الجوهرية فقط و المشاركة في المساحة فقط و المشاركة في الكيفية فقط و المشاركة في الكمية فقط.

أكد اليوسي من خلال مقارناته تلك على أهمية لفظ المثل و شموليته و هو ما يكسبه ميزة مشاركة غيره من المرادفات في خصوصيتها جميعا. و كان هدفه من وراء كلّ ذلك الإعلاء من قيمة المثل و شأنه، و بالتالي لفت الانتباه إليه، و ليؤكد على ما ذهب إليه راح يستشهد بقوله تعالى: (ليس كمثل شيء) في موضع تحدث الله عن ذاته العلاء، فلم يرد في الآية الكريمة (ليس كشيء شيء) أو (كمشاكله) أو (كندّه)، بل وردت كلمة (مثله) و هو ما يوحي بأهمية هذه الكلمة و قوّة دلالتها. و قد قيل في هذا الصدد مهما تصوّر الإنسان الذات الإلهية فهي خلاف ذلك.

2- إنّ اليوسي لا يؤمن بالمسلمات ولا بما شاع عند الناس بأنّه الحقيقة، التي لا تقبل الشكّ

إذ يتصدى إلى بعض تعريفات الأمثال من مثل (القول السّائر المشبّه مضربه

بمورده)، فيناقش هذه القضية ويكشف مكامن الخطأ فيها بأسلوبه المنطقي الواقعي.

3- إنه لا يكتفي بإظهار العيوب والنقائص بل يقترح بدائل مؤسّسة، هي أيضا على المنطق و مستجيبة للواقع، و هو ما تسنى لنا ملاحظته في خضم استعراضه لتعريفات غيره للمثل التي توجّه بتعريف له جاء شاملا و وافيا. و هو في ذلك لا يطمئن إلى قول من مجموع تلك الأقوال حتى يخضعه للمنطق و الواقع على حد سواء، و يتحقق من مدى صدقه، و قد اقترب أسلوبه أو بالأحرى نهجه، في كلّ ذلك من العلمية.

4- إنه يبدو ممارسا لآليات النقد الذاتي للمسألة التي هو بصددّها ، فيعرض بادئا ذي بدء كلاما ليقابله بوجه اعتراض من خلال توجيه أسئلة يفترضها، مستعينا بعبارة (فإن قيل) ليقترح في النهاية إجابة لما افترض أنه إشكال ، و هكذا فإنه يبني طريقة تحليله وفق هذا الأساس الذي يتطلب عرض مسألة، و تقديم فرضيات حولها و وضع نتائج لها.

5- أشار اليوسي (و إن ضمنيا) إلى قضية هامة، و هي اكتساب اللغة لمعان جديدة من منطق الاستعمال العادي أو المكثف لها و من ذلك ما ذكر في اللغة من أنّ كلمة (حجّ) تعني لغة (زار) ولكن لما كثرت الزيارة إلى بيت الله الحرام بمكة واستعملت لها كلمة « حجّ » أصبح كل من يتلفظ بهذه الكلمة يتبادر إلى ذهنه زيارة البيت العتيق، وإن كانت حجته تلك زيارة لمكان آخر غير مكة، و قد حاول اليوسي - على ما نعتقد - إسقاط هذا المفهوم على المثل فذكر أن المثل تشبيه من التشبيهات إلا أنه سار وذاع في بابه فعُدّ مثلا سائرا ، أي اكتسب صفة السير من كثرة سيره.

6- لمّح في تعريفه للمثل إلى مسألة العفوية المحتملة في أثناء استعمال المثل، التي مفادها أن لا قصدية عند مُطلق المثل في أن يصير كلامه مثلا أو تشبيها يتم الرجوع إليه ، و هو ما تسنى لنا استنتاجه لدى وقوفنا عند المثل (الصيف ضيعت اللبن).

7- ناقش اليوسي كذلك قضية هامة، لم يتصد لها أحد من قبله- في حدود علمنا- وهو سبب عدم جواز التغيير والتصرّف في المثل، لكون المثل استعارة (بالمعنى اللغوي أو الاصطلاحي) فلا يستعير الإنسان شيئا، إلا إذا كان في حاجة إليه، أو لأن مقتضى حاله يماثل مقتضى حال المستعار منه فلا يلجأ من ثمّة إلى التغيير، ولأنّ التغيير في اعتقادنا يجعل الصورة مشوشة في ذهن المتلقي و هو ما قد يكون سببا في عدم نجاح الرسالة، ومن ثمّ بلوغها، إذ يصعب فهم الشفرة الجامعة بين المرسل إليه أو المتلقي مما يُولد إحساسا بالتنافر بين القطبين الفاعلين في الرسالة.

- بين المثل والحكمة

يقول اليوسي بعد أن أتى على تعريف الحكمة: «قد أتضح من هذا الفرق بين المثل والحكمة، وذلك فيما يحضر فكري الآن من ثلاثة أمور: أن الحكمة عامة في الأقوال والأفعال والمثل خاص بالأقوال، والمثل وقع فيه التشبيه كما مرّ، دون الحكمة، ثالثاً أن المقصود من المثل الاحتجاج، ومن الحكمة التنبيه والإعلام والوعظ». (1)

إنّ الفروق الثلاثة هي استنتاج توصل إليه من جلّ التعريفات لدى تحديده لكل من المثل و الحكمة عند غيره من المعرفين، ولكنه لا يسلم بهذه الفروق بل يناقشها كلاً على حدة موظفاً في ذلك مرجعته الثقافية، وبخاصة علم المنطق، و هي المسألة يمكن استخلاصها من قوله: «ويرد على الأول أنه فرّق بحسب أهمية المورد، ولا مساس له بالحقيقة. فلم يفد أنّ الحكمة الفعلية تُباين المثل و لا نزاع فيه، وليس بمفيد في الأقوال إذ تنوزع فيها أن شيئاً منها حكمة أو مثل- على أنه قد يكون التمثيل بالفعل أيضاً كتصوير شكل المثلث لمن لا يعرفه - ومن ثمة يعد من جملة الرّسوم المعرفات للأشياء التعريف بالمثال» (2)

يردّ اليوسي على من يقول إنّ الحكمة عامة في الأقوال و الأفعال بخلاف الأمثال التي تخصّ الأقوال فقط، فيؤكد على إمكانية تمديد التمثيل أو ضرب المثل ليشمل نطاق الأفعال. ويستعين في شرح تلك الخصوصية بمثال استلهمه من الرياضيات، حيث يقرن مسألة التمثيل بعملية الرسم التي قد توحى إلى ما هو مجرد لکنه و هو يتحدث عن رسم شكل هندسي هو المثلث يجعل المسألة حسية مرئية. و هو ما قد يوحى إلى مضرب المثل الذي يستند في أساسه إلى ما هو واقع، أي بعبارة أخرى، إلى المورد الذي نسجت حوله القصة التفسيرية.

ينتقل اليوسي بعد ذلك للعنصر الثاني ، فيقول شارحاً و معلقاً: «ويرد على الثاني أنه إنّ عني بتشبيه المضرب بالمورد حقيقة فقد مرّ أن نوعاً كبيراً من الأمثال لا يجري فيه ذلك على ما ينبغي، و إنّ عني مطلق التشبيه، فهو واقع في الحكم كثيراً، كقولهم: (من فسدت بطانته

1- زهر الأكم: ج: 1ص: 29

2- م.ن، ج: 1ص: 30.

كان كمن غصّ بالماء) على أنه قد عدّ من الأمثال ما لا تشبيه فيه أصلاً بوجه كقولهم: (من قرع الباب ولجّ ولجّ) وقولهم: (الرياح مع السّماح) ونحو ذلك⁽¹⁾.

و بخصوص ما ذهب إليه بعض النقاد في أنّ (المثل واقع فيه التشبيه بخلاف الحكمة) فإننا نجد رد اليوسي الذي بدا فيه محتكما إلى المنطق و منتهجا أسلوب الإقناع و مُنما عن ثقافة متعددة الآفاق، حيث يقول إنّ قصد به تشبيه المضرب بالمورد، وهي المسألة التي سبق أن ناقشنا لدى تعريفه للمثل-فإنّ ثمة عددا مُعتبراً من الأمثال لا يقع عليها هذا التشبيه، كما هو حال الأحكام و الأوامر و النواهي الشرعية و إن كان الأمر كذلك فمن حقنا أن نتساءل عن المصدر الأوّل للاحتجاج بالتشبيه؟ أما إذا كانت دلالة التشبيه في حالتنا هذه دلالة مطلقة، أي أنّها مرتبطة بمسألة ورود التشبيه بأركانه أو بدونها داخل المثل، فإنّ الميزة تخصّ أيضاً الحكمة، إذ كثيراً ما يرد فيها التشبيه. و ليثبت اليوسي عكس القضية راح يؤكد، مستعينا بأمثلة كثيرة، على وجود أمثال لا تشبيه فيها. و نعتقد أنّ ما أراد أن يقنعنا به في هذه المرحلة بالذات من كتابه هو استبعاد وجود، أو بالأحرى إيجاد فرق بين المثل و الحكمة، كما سنرى لاحقاً.

جاء في ردّ اليوسي على من قال إنّ: (المثل يحتاج به بخلاف الحكمة) بصيغة نسبية حيث يقول: « و يرد على الثالث أنّ الاحتجاج صحيح في الحكم أيضاً، بل جُلّها قضايا كليّات وقوانين يُوردُ بحيث تصلح في كل أمر أن تكون حجة فيه محذوفاً إحدى مقدمتيها فإذا قلنا: من فسدت بطانته كان كمن غصّ بالماء أمكن أن نقول: إنّ فلاناً فسدت بطانته، وهو المقدمّة الباقية، فيعلم أنّ فلاناً هو كمن غصّ بالماء. وهذا الاستدلال هو الكاشف عن الصّواب والخطأ في الأنظار والعلوم، وهو معنى الحكمة بالحقيقة، وإنّما قلنا جُلّ الحكم قضايا، لأنّ ذلك هو الصّريح، وقد يكون منها غير ذلك، كالأوامر والنّواهي، لكنّها تتخذ قضايا بحسب اللّزوم، فالحكم كلّها تصلح للاحتجاج، وهي بصده كالأمثال، على أنّ الأمثال ليست كلّها بصدد الاحتجاج، بل هي بالأصالة للتّصوير، وإنّما تصلح للاحتجاج عندما يراد بها التّصديق من مدح، أو ذم، أو تشويه، أو إظهار رغبة في شيء، أو عدم مبالاة... »⁽²⁾

يتبيّن إذن من كلام اليوسي أنّه يعارض بشدّة أولئك الذين يزعمون عدم صلاحية الحكمة في الاحتجاج، و يبني معارضته على أمثلة يشرحها على أساس من المنطق، بل نراه يركز

1- زهر الأكم: ج: 1 ص: 29.

2- زهر الأكم، ج: 1 ص: 30.

على مفاهيم قد يصعب فهمها لما لها من علاقة وطيدة بالمنطق الأرسطي و من ذلك قوله عن الحكم بأنها قضايا كلييات، و عن الاستدلال إنه كشف عن الصواب و الخطأ في أنظار العلوم. و لأنّ المسألة هامة سنحاول البحث فيها ما أمكن بإيراد الشروحات الضرورية التالية:

القضية⁽¹⁾ بلغة المناطقة: عبارة أو (أو جملة) تحتل لذاتها الصدق والكذب، أو هي كل قول يمكن أن نحكم عليه بالصدق أو الكذب، و تكون:

- إما كلية: على نحو قولنا: كل إنسان مفكر.

- أو جزئية: على نحو قولنا: محمد مفكر.

أما الاستدلال⁽²⁾ الذي أتى على ذكره اليوسي فهو: حركة فكرية يتم خلالها الانتقال من قضية أو عدّة قضايا (تدعى مقدمات) إلى قضية أخرى (تدعى نتيجة)، و الاستدلال الوارد في هذا النص المقصود به (القياس الأرسطي)، الذي يعده كثير من المناطقة معيار الصدق و الكذب أو هو (الكاشف عن الصواب و الخطأ) في جميع مجالات البحث و المعرفة.

يقصد اليوسي من قول: جل الحكم قضايا لأنّ ذلك هو الصريح: كون معظم الحكم عبارة عن قضايا (عبارات) تقبل الصدق أو الكذب، و منها ما لا يكون صريحا في الدلالة على ذلك كما هو الحال في (سياق الأمر و النهي)، فيتطلب الأمر في هاتين الحالتين مراعاة مقتضى الحال. وإذا أمعنا التفكير في هذه المسألة، تسنى لنا أن نقول مستنتجين إنّ ثمة علاقة وثيقة بين إخراج اليوسي (للأمر و النهي) عمّا حدّد منطقيا بأنّه قضية، و بين تحديد البلاغيين للأسلوب الخبري و الإنشائي. حيث يقولون عن الخبري: إنه ما يصحّ أن يُقال لقائله: صادق فيه أو كاذب، فإن كان الكلام مطابقا للواقع كان قائله صادقا، و إن كان غير مطابق له كان قائله كاذبا. أما تعريف الأسلوب الإنشائي: هو الكلام الذي ينشئه القائل لطلب حدوث فعل أو نهي عنه، أو استنفهام أو نداء، أو تمنّ، بالإضافة إلى الأساليب الإنشائية الطلبية، ولذا لا يصحّ أن يُوصف هذا الكلام بالصدق أو الكذب.⁽³⁾

1 - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1978. ج: 2، ص: 195.

2 - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ص: 67.

3 - علي الجارم، و مصطفى أمين. البلاغة الواضحة مع دليلها. ديوان المطبوعات الجامعية، بوهرا. ص: 139.

-لأنّ الأمر و النهي الذي توقّف اليوسي عندهما من الأساليب الإنشائية فإنّهما يندرجان ضمن الحكم التي لا تقبل الصدق و الكذب، أي أنّهما لا يصلحان بالمفهوم الأرسطي للقضية. فحريّ بنا أن نقول إنّ المفاهيم البلاغية تجد مرتكزا لها عند اليوسي في المنطق، و ما ذلك إلا لسلامة الافتراض الذي يرى أنّ البلاغة في مراحل تطوّرها خضعت في جوهرها لتطوّر العقل الذي يستلهم الصور الخيالية من عالم التجريد، ذلك العالم الذي ما كان له ليستقل عن جو الاحتكاك بالفلسفة و المنطق و بروافد الاحتكاك التي مسّت العقل العربي، على غرار العقول الأخرى، في ثنائية الأخذ و العطاء التي لا سبيل لتجاهلها لدى حديثنا عن عوامل الإنتاج الفكري لدى شعب من الشعوب عبر التاريخ.

ونتيجة مباشرة لعملية التحقق من مدى السلامة المنطقية لتلك الآراء، ومدى مطابقتها لواقع الحال وواقعيتها يقول في صيغة مطوّلة على غرار ما لمسناه فيما سبق « و يجب عنها أما أوّلا فبأنّ القصد الفرق بين المثل والحكمة مطلقاً أعمّ من المورد والحقيقي، وهذا كافٍ في الأوّل وليس مقتصرًا عليه حتّى يعد قاصراً، وأما ثانياً فبأنّ نعني تشبيهاً خاصاً لا مطلقاً، أما في الوجه الثاني من الأمثال فهو تشبيه المضرب بالمورد كما مرّ وأما في الأوّل فلا يخفى أن لم يكن فيها على وجهه أن فيها تشبيهاً بعنصر خاص معيّن هو سبب جريان ذلك الكلام ووقوع ذلك التشبيه على ما تقدم توضيحه، وليس ذلك بمنظور في الحكم وأما ثالثاً فبأنّ الاحتجاج في المثل واقع بالفعل حيثما أطلق على سبيل الخصوص، والحكمة إنّما تراد عامة على وجه الصّلاح للاحتجاج بها في الخصوصيات لا على الفعل فالاحتجاج خلاف الاحتجاج نعم، يبقى من الأمثال ما لم يقع فيه تشبيه لا صريحاً ولا مقدّراً. والحق أنّ من الأمثال ما لا يشبه بالحكمة في وردٍ ولا صدرٍ، نحو: الصيّف ضيعت اللّبن، ومن الحكم ما لا يشتهه بالمثل كثير من الحكم الإنشائية⁽¹⁾ ويبقى ذلك وسط يتجاول فيه الفريقان كالمثل السابقة- فإنّ كثيراً منها قد يعدّ مثلاً تارة وحكمة تارة أخرى، ولا فرق فيما يظهر إلا بالحيثية، وهي أنّها إنّ سيقّت ملاحظاً فيها التشبيه فمثل، وإن سيقّت ملاحظاً فيها التشبيه أو الوعظ أو إثبات قانون أو فائدة ينتفع بها الناس في معاشهم ومعادهم فحكمة. وهذا معروف بالاستقراء⁽²⁾، وشاهده الذوق بعد معرفة أن مرجع الحكمة الإصابت، ومرجع المثل التشبيه كما مرّ، حتّى أنّ من يضرب

1- و هي الأوامر و التواهي التي أشار إليها اليوسي قبلا، و المركبة من الأساليب الإنشائية.

2- الاستقراء: Induction: لغة:التبع. و عند المنطقيين: هو الحكم على الكلّي لثبوت ذلك الحكم في الجزئي، قال الخوارزمي: "الاستقراء هو تعرف الشيء الكلّي بجميع أشخاصه". (المعجم الفلسفي. ج: 01. ص: 71).

للناس أمثالا غريبة ينتفعون بها يصح أن يقال عنه إنه حكيم، لأنه مصيب في ذلك المثل الذي ضربه، وهكذا يقال في التمثيل الفعلي السابق فإن من صور صورة مسدس مثلاً عدّ منه ذلك تمثيلاً من حيث التشبيه، وحكمة من حيث الإصابة والإتقان ولا تنافي بين الغرضين. ومن وسّع نطاق الاعتبار أمكنه في كل مثل وحكمة هذا المقدار، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. « (1)

بعد كلام اليوسي في هذه الفقرة خلاصة لما أورده سلفاً من الحجج ونقيض الحجج ليخرج بخلاصة قرّر فيها أن قولاً ما يمكن أن يكون حكمة كما يمكنه أن يكون مثلاً، بحسب الحيثية كما ذكر والحيثية هي ما يدعى في الاصطلاح الحديث بالسياق الذي يؤدي دوراً محورياً في فك الشفرة ووصول الرسالة إلى المتلقي بحسب مقصدية المرسل. و لم يكن اليوسي ليتوصل إلى كلّ هذه النتائج التي لم توصل إليها سواه لولا إطلاعه على المنطق، و ليس أدل على ذلك من إيراده لكثير من مصطلحاته، و مثال ذلك ما توصل من جواز أن يكون قولاً ما مثلاً أحياناً و حكمة أخرى بحسب السياق المتوصل إليه بالاستقراء كما رأيناه و هو الحكم على الكلّي لثبوت ذلك الحكم في الجزئي، بمعنى الحكم على القول بأنه حكمة لأنّ تتبع حيثياتها و جزئياتها أثبت أنه يصلح حكمة.

وعلى الرغم من النتائج الهامة التي وصل إليها اليوسي في باب حديثه عن الحكمة و المثل و مقارنته لهما، فإنه أغفل بعض الحقائق التي تجعل الحكمة تختلف في بعض الوجوه عن المثل، وهو أنّ للمثل قصة، وليس الأمر كذلك بالنسبة للحكمة، وهو ما ذهب إليه عمر عروة: « و المثل يختلف عن الحكمة، لأنّ الحكمة تفيد أمراً واحداً، فهي نصح وإرشاد وأمر أما المثل فيفيد معنيين معنى ظاهراً و آخر باطنياً، فهو في الأوّل حدث من أحداث التاريخ وفي الثّاني امتزاج مع الحكمة ويلتقي معها في المؤدى « (2) ، ومحل الشاهد في هذا القول (حدث من أحداث التاريخ) الذي يعني به قصة المثل. كما أنّ اليوسي لم يشر، وهو بصدّد الحديث عن الاختلاف الحاصل بين المثل والحكمة، إلى الفرق بين مصدر كلّ منهما، إذ عادة ما تصدر الحكمة عن أناس حكماء، أو أدباء ومتقنين اكتسبوا تجربة، بينما المثل قد يطلقه أي

1- زهر الأكم، ج:1، ص:30.

2- عمر عروة، النثر الفني القديم، أبرز فنونه و أعلامه، دار القصة للنشر، الجزائر، 2000، ص:15.

إنسان ولو كان من عامة الشعب، بل حتى من الصبيان أحيانا و لذلك قيل: (المثل صوت الشعب).

4 وظيفة المثل

غالبا ما يأتي حديث الكتاب و الدارسين عن وظيفة المثل محدودا ومختصرا، إذ لا تبتعد كلماتهم كثيرا عن مفاهيم من قبيل التجربة و التفاعل و الحاجة.و لكن أن ترد تلك المفاهيم و غيرها ممتزجة بالفلسفة و المنطق ، فذلك ما لم يتهيا لنا ايجاده إلا عند اليوسي الذي يُقدّم قراءاته الخاصة حول المسألة مستعينا بأدوات الفلسفة و الحجج المنطقية، يقول: «أما الأوّل فهو المثل، فلا يخفى على ذي ميزٍ ، و لا يشتبه على ذي لب ما جعل الله تعالى فيه من الحكمة وأودع من الفائدة، و ناط به من الحاجة، فإنّ ضرب المثل يوضّح المنبّه و يفتح المنغلق، و به يصوّر المعنى في الذهن و يكشف المعنى عند اللبس و به يقع في النفس حسن موقع و تقبله فضل قبول و تطمئنن به اطمئنانا، و به يقع إقناع الخصم (*) و قطع تشوّف المعترض. و هذا كلّه معروف بالضرورة، شائع في الخاص و العام (***) و متداول في العلوم كلّها منقولها و معقولها، و في المحاورات و المخاطبات، حتّى شاع من كلام عامة المتعلمين و المعلمين قولهم:بأمثالها تعرف أو تتبين الأشياء»(1).

يبين اليوسي إذن من خلال هذه الفقرة فوائد المثل،ويُعدّها في نقاط هامة هي:توضيح الغامض من الكلام،و فتح المنغلق منه ،و تشخيص المعنى العالق في الذهن،فيجعله كالصورة البادية للعيان.و سبق أن تطرق لهذه المسألة في خضم تعريفه للمثل، حيث رأى أنّه يزيل الالتباس ممكن الحصول في مسألة من المسائل.كما يضيف أنّه من وسائل الإقناع و أدوات الحجاج و يشير إلى أنّ هذه النقاط معروفة لدى الخاص و العام.و لا يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل يواصل التعرض لفوائد المثل : « و سرّ ذلك أنّ المثل يصوّر المعقول بصورة المحسوس،و قد يصوّر المعدوم بصورة الموجود، والغائب بصورة المشاهد الحاضر، فيستعين العقل على إدراك ذلك بالحواس، فينتقوى الإدراك و يتّضح المُدرك،وتحقيق ذلك أنّ العقول و إن كانت تدرك المعلومات، لكنّها غير مستقلّة بنفسها غالبا في إدراك جميعها و لا جُلّها استقلالا

* و هذا ما أشرنا إليه من صلاحية المثل للإحتجاج.

*** قد تكشف هذه النقطة سرّ تعاضى اليوسي عن شرح بعض ما يستحق الشرح و التوضيح، إذ يعتقد أنّه يخاطب دوما متلقين لهم مستوى ثقافي يؤهلهم لإدراك مقصديته، و استيعاب رسالته ، أو هم قراء لهم أفق انتظار حسب تعبير نظرية التلقي، و هذا ما سنطّلع عليه عند شرحه لبعض الأمثال، و أوّل المثل الأوّل الذي استهل به كتابه، إلا أنّ الحقيقة أنّ هذا الأمر لم يعد يستجيب لقارئ سطحي لا قوّة له على التأويل و تشقيق أغلفة الألفاظ وصولا إلى طبقات المعاني التي يخلقها نص المثل بطبيعته الخاصة.

1-زهر الأكم، ج:1،ص:31.

صرفا لا سيما القاصرة.و ذلك أنّ العقول إنّما تستقل بإدراك أوائل الضرورات التي توجد في غرائزها،ولا تدري لها سببا غير اختراع الفاعل المختار.و ما سوى ذلك فالعقول فيها إما مفكرة إلى الحواس كالمعلومات التجريبية التي موادها محسوسة بإحدى الحواس ؛ و إما مستعينة بها ضربا من الاستعانة على طريق التمثيل و التقرير و نحوه.و ذلك في غير ذلك⁽¹⁾ .

عمد اليوسي في هذه الإضافة إلى التلميح ،إن لم تكن المسألة تصريحاً في حدّ ذاته إلى مرجعيته الثقافية في علم المنطق ، إذ يرى أنّ العقول تكون مؤهلة لإدراك المحسوسات من الأشياء و هو ما يتجسد بواسطة المثل الذي يتخذه الباحث أو المرسل وسيلة مثلى لجعل المجرد في صورة المحسوس، أو بالأحرى تقريبا ما قد يخفى على المرسل إليه.و توحى هذه المسألة بما يفترض أن يشكل مسألة جدلية في المنطق منطلقها إيجاد العلاقة المحتملة بين الصورة و الجوهر، أي بين ما هو صوري و جوهري في حقائق الأشياء، فالعلاقة تكاملية بين العنصرين، بل هي تبادلية و تجميعية.

إنّ اليوسي توصل إلى استنتاج مفاده أنّ أهم وظيفة للمثل تتمثل في كونه يصورّ المجرد غير المحسوس في صورة المحسوس، الذي تستوعبه العقول بعد مروره على حاسة العين ،فبعض العقول، بل جلّها لا ترى إلا عبر التجسيم و التجسيد و ضرب الأمثال: « إنّ الإدراك سواء قلنا أنّه بالعقل فقط بواسطة الحواس، لا يخفى أنّ ما كان من قبل الحواس الخمس هو أظهر و أسهل، و لذا شاركت فيه الحيوانات العجم الإنسان ، و أنّ ما لم يكن ذلك بنوع تعلق أصلا أخفى و أصعب و أسرف، و بمزية الاختصاص به كان الإنسان أشرف.فكل ما يدركه بحسب العادة الجارية استقراء، إما شيء وصل إليه من طرق الحواس فيقع له فيه بعد تأديبه إليه منها نوع من التّصورّ و نوع من التّصرّف بالتّحليل و التّركيب ؛ و إما شيء لم يتأدّ إليه بالحواس، و هو إما شيء يجده عند نفسه أوّلا كعلمه بأنّ الموجود لا يكون معدوما و أنّ الشيء الواحد لا يكون زمانا واحدا في مكانين⁽²⁾» .

ما نلمحه في هذه الفقرة هو مواصلة اليوسي بحثه في فائدة المثل أو وظيفته فنراه هذه المرّة يخوض في عملية الإدراك، التي عدّت واحدة من الأفكار التي قال بها أصحاب نظرية التلقي و اهتموا بها « و يأتي دور المتلقي بواسطة فعل الإدراك و آلية الفهم ليقوم

1-زهر الأكم، ج:1،ص:31.

2-م.ن.

بعمليات الردّ و التعليق و التعويض و ملء الفجوات « (1) إنه يتساءل عن كيفية إدراك العقل للموجودات؟ و للإجابة عن ذلك التساؤل الذي يمتزج فيه العلم بالفلسفة يشير إلى حاسة الإدراك التي حابى الله بها الإنسان و شرّفه و ميّزه بها عن المخلوقات. و الإدراك المقصود هنا هو ذلك الذي يتم بغير الحواس أي أنه إدراك بالعقل. و أوّل سبل الإدراك العقلي للموجودات الاستقراء الذي يعدّ عملية عقلية محضة، يسعى بوساطتها الإنسان لاستنتاج ما لا تقوله الحواس، و ما لا تكشفه الماديات فيترجم ما هو غير حسّي على سبيل معرفة اكتسبها من ذي قبل و راح يقيس عليها ما يصلح أن يكون شبيها لها في نظام تحديده لحقائق الأشياء و مكنوناتها.

الفصل الأول القراءة اللغوية للمثل

- 1- المفردة اللغوية.
- 2- القراءة الصرفية.
- 3- القراءة النحوية.
- 4- القراءة البلاغية.

تُعدُّ القراءة اللغوية من الشروط الأساسية التي يعول عليها حتى يتمكن الباحث من الولوج إلى صميم النص الأدبي، لا سيما إذا كان هذا النص يتصف بالإيجاز و التكتيف و العدول كما هو الشأن في المثل العربي. و نعني بالقراءة اللغوية ذاك المفهوم الذي تحكمه مستويات مختلفة، من قراءة معجمية و صرفية و نحوية و بلاغية و عروضية، لأنّ الجهل بها أو ببعض آلياتها يحول دون الفهم الحقيقي للخطاب الأدبي، بل قد يوقع القارئ في خطأ التفسير و التأويل، و ربما يصل به الأمر أحيانا حد التناقض و الخلوص إلى نتائج عكسية مما يكون قد سعى إليه ابتداء.

إنّ شكل المثل و مضمونه لا يمكن البحث فيهما خارج فكرة (النص المفتوح) على مجموعة من المدلولات ذات الأصل السياقي و المرجعي، لأنّ المثل ، و إن كان أقلّ شأنًا من الشعر منزلة و رواجًا ، فإنّه كالنص المفتوح: « ينتجه القارئ في عملية مشاركة، لا مجرد استهلاك... فممارسة القراءة إسهام في التأليف»⁽¹⁾، و اليوسي في جمعه للأمثال و تحليل و تأويل بعض مضامينها، يعدّ كذلك مصدرا من مصادر المثل.

و بما أنّ الأمر على هذه الأهمية، فهل استجاب اليوسي إبان قراءاته للأمثال لمتطلبات هذه القراءة الواعية الشاملة، و هو يشرح الأمثال؟ وما الأدوات و الآليات التي وظّفها حتى تتخذ مقاربتة بعدا تداوليا و إقناعيا؟

1- المفردة اللغوية

أعار اليوسي اهتماما كبيرا للمفردة اللغوية أثناء في قراءته للأمثال، بكونها اللبنة الأساسية في البناء اللغوي، ذلك ما سنحاول بحثه و تبيانته في هذا الفصل.

أ- المعاني الأصلية و الفرعية للمفردة اللغوية:

إنّ ما نفت انتباهنا ، و نحن بصدد دراسة مدونة اليوسي، أنه و بخلاف كثير من جامعي الأمثال و شراحها ممن سبقوه إلى هذا الميدان، أنه أولى أهمية قصوى للمفردة اللغوية المكونة لجملة المثل، حيث قبل التطرق لمعنى المثل ومورده و مضربه يفك المثل إلى عناصره الأولية و يجزأه، و يبيّن لكلّ لفظة منه معانيها الأصلية و الفرعية، إلا أن تكون اللفظة مما لا يُستدعى شرحها، و إلا فإنه يلجأ حتى إلى الإتيان بقصص كاملة و حوادث، لا شيء إلا

1 - صلاح فضل/بلاغة الخطاب و علم النص، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت 1992، ص:231.

لكون الكلمة التي هو بصدد شرحها قد وظّفت في تلك الحادثة، لأنّ ذلك يدعم رأيه الذي ذهب إليه فاللغة إنّما تبرز قيمتها و تتأكد مصداقية الكلمة فيها بالاستعمال، و هذا الذي ذهب إليه رولان بارت من أنّ « اللغة سلطة تشريعية، و اللسان قانونها » (1) و سنرى من خلال هذا المبحث و استنادا إلى عيّنة من الأمثال، كيف تعرض اليوسي للمعاني الأصلية و الفرعية. المعنى الأصلي للكلمة: هو المعنى المباشر الذي لا يقبل أيّ تأويل، أو المعنى الحرفي المباشر الذي تشتهر به تلك الكلمة، و هو أوّل ما يتبادر إلى ذهن المتلقي لدى سماعه لها، إنّها الكلمة الأولى من حيث الترتيب المعجمي.

أولى اليوسي عناية خاصة لكل من المعاني الأصلية و الفرعية عند تصديه لشرح الأمثال، قبل التطرق إلى موردها و مضربها أو تصنيفها و هو خلاف ما نجده عند من كتب في الأمثال. و في ما يلي نماذج استخلصناها من قراءة اليوسي من الزاوية، التي أشرنا إليها سلفاً:

المثل: أبي الحقين العذرة (2)

حيث يتصدى للشرح اللغوي لهذا المثل، فائلا عن الفعل: (أبي) الإباية:

الامتناع. يقال: أبي الشيء يأباه و يأبيه و إباة بكسر أولهما، إذا كرهه.

حيث تعرض من خلال شرح هذا المثل بالإتيان أولاً بمصدر الفعل

(الإباية)، و أعطى المعنى الأصلي لها، و هو الامتناع ثم تطرق إلى الناحية المورفولوجية أو

الصرفية للمثل، ليخلص في النهاية إلى إعطاء المعنى الفرعي لكلمة: (أبي) و هو

الكره. و هو بالإضافة إلى كونه معنى فرعياً للفعل فإنه يوحى بأنه هو سبب المعنى

الأصلي، إذ لم يحصل الإباة إلا بعد حصول الكره، و من كره شيئاً أباه و تأباه.

جاء في لسان العرب: أبي: الإباة بالكسر: مصدر قولك أبي فلان يأبي، بالفتح

فيهما مع خلوه من حروف الحلق، و هو شاذ، أي امتنع. أبي الشيء يأباه و إباة أي: كرهه. (3)

حيث نلاحظ أنّ شرح اليوسي للفعل: « أبي » يتطابق تماماً مع شرح ابن منظور

في لسانه مما يدل على أصالة مصادره، و استقاء مادته من المتون لا من الحواشي.

1- رولان بارط، درس السيميولوجيا، مجلة الكرمل ع: 18 / 1985، ص: 25.

2- زهر الأكم، ج: 1، ص: 59.

3- أبو الفضل جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، دار الكتب العلمية للنشر، بيروت 1996، مادة أبي.

و لو أجرينا مقارنة بسيطة مع شرح الميداني في كتابه (مجمع الأمثال) لوجدناه مقتصرًا على شرح وحيد للكلمة، و ومن دون الإشارة إلى المعاني المتعددة لها، و لا إلى تصريفها، مما يدل على تميّز اليوسي في هذا الباب، بالرغم من كون الميداني السّابق إلى هذا الفن.

- و من الأمثال كذلك: إذا عز أخوك فهن.

يتناول اليوسي شرح ألفاظ هذا المثل كما يلي: العزّ: خلاف الذل، يقال عزّ الرجل يعزّ إذا قوي و امتنع بعد ذلة، و عزّ علي أن تفعل كذا، و عزّ علي هذا الأمر: أي اشتدّ. و هُنّ: يُروى بضمّ الهاء و كسرهما، فالضم من هان يهون هوانا إذا ذلّ و خضع. و الكسر من هان يهين إذا لان و المعنى إذا اشتدّ أخوك و تصعب فلن أنت. هكذا ذكر بعض الناس، و صحيح من جهة المعنى لكن ما ذكر كسر الهاء إنّما يصح إن و جدت مادة (هـ ي ن) . و المعروف في اللغة إنّما هو مادة (هـ و ن) ، إلا أنه إذا أريد الذلة و الخضوع، قيل الهون بضم الهاء، و الهوان و المهانة إذا أريد اللين، قيل الهوان بفتح الهاء. قال تعالى: ﴿و الذين يمشون في الأرض هونا﴾⁽¹⁾. و يقال للرجل هينّ و هين كميّت و ميّت و ليس يائيا بل واويا. فوقع القلب: هونّ الله الأمر، إذا سهّله. و ما يوافق المعنى الأول قول ابن أحرر:

وقارعة من الأيام لــــولا... سبيلهم لراحت عنك حيناً

دببت لها الضراء وقلت أبغي... إذا عز ابن عمك أن تهون⁽²⁾

لو تأملنا قراءة اليوسي لألفاظ هذا المثل لوجدناها قراءة شاملة ضافية من الجانب اللغوي، إذ استهل شرح لفظ (العزّ) بالإتيان بضده، و لا يخفى ما لأضداد الكلمات من دور في توضيح الدلالة، و قد قيل (بضدها تعرف الأشياء)، وضح المعنى الأصلي لكلمة (العزّ)، و هي القوة و المناعة، ثم أتى على تبيان المعنى الفرعي للكلمة ذاتها بعد دخول حرف الجر في السياق، فأصبحت بعد ذلك تعني الاشتداد. هذا فيما يخص الفعل الأول (عزّ) ، أما الفعل الثاني الوارد في جملة المثل (هُنّ) فإنّه لجأ كذلك إلى تبيان معناه الأصلي الذي يعني الهوان و الخضوع، ثمّ تطرق إلى الناحية الصرفية للمثل، فأوضح من خلالها أنّ معنى الفعل يتغيّر بحسب وروده مضموماً أو مفتوحاً، و استشهد في كلتا الحالتين بآية قرآنية و أبيات شعرية.

1- الفرقان، الآية:63.

2- زهر الأكم، ج:1، ص:74/73.

و لكن ، و بعد هذا ألا يحق لنا أن نتساءل ما الذي يجعل المعنى الأصلي أصليا ، و الفرعي فرعيا ؟ لماذا لا يحدث العكس بخصوص هذا اللفظ لا بعموم اللغة؟ فيكون الجيد من كل شيء هو الأصل، ونقيض العبد هو الفرع ؟ و ما الذي أعطى للمعنى الأصلي أصليته ، و منحه حق الصدارة ؟

إنّ السبب آيل إلى الاستعمال ، فالاستعمال دائما هو الذي يفرض منطقته على الإصطلاح اللغوي ، كما ذكر في مقولة رولان بارط ، إذ لما اطرد استعمال كلمة (الحر) للإنسان نقيض العبد، أصبح يتبادر إلى الذهن أنّ كل متلفظ بكلمة (حر) إنّما يعني الإنسان نقيض العبد و قد يكون لذلك أسباب تاريخية و اجتماعية، حيث كثر في العصور الغابرة الخدم و الرقيق، و من ثمة وجب التمييز بينهما، و قد رأينا في كتب السيرة أنّ المرأة الأمة تتميز في لباسها من الحرّة، حتى بعض المنكرات المنتشرة في الجاهلية مثل الزنا كان من اختصاص الإماء لا الحرّاء، و هذا ما دعا هندا بنت عتبة أن تقول للرسول ﷺ : "أوتزني الحرة يا رسول الله؟" في إشارة منها أنّ هذا من فعل الإماء لا الحرّاء. و هذا لما تلى عليها قوله تعالى لِيَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ {سورة الممتحنة، الآية:12}.

إنّ التمايز حاصل من هذه الجهة كما نقدر ذلك، فالأشياء إنّما تكتسب قيمتها من الإنسان الذي يستخدمها يعطي لنفسه حق الصدارة، و لغيره دورا ثانويا. و ما دام المثل مركبة لغوية دالة فإنه تراعى فيها طريقة تشكيله التي هي أكثر فاعلية في : « إنّ سلطة المنتج على نصه، و امتلاكه له، يزول بمجرد ما يلقي به إلى القارئ⁽¹⁾ » ، و هذا خلافا للفرق الذي يحدث : «بين الفعل التواصل الذي يتم بموجب حضور متزامن لطرفي التواصل... و بين الفعل التواصل الذي يعتمد النص المكتوب قناة، و لا يستلزم الحضور المتزامن للطرفين»⁽²⁾. و إذا

1- محمد الماكري، الشكل و الخطاب/مدخل لتحليل ظاهراتي ، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت 1991 ، ص:252.

2- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

نظر إلى المثل بشكله النثري، فإنّ حضور ركني العملية الخطابية، يصبح أمراً ملزماً لتمرير الدلالة، التي تتجاوز المعنى الأوّل، تكثف التأثير لدى المتلقي، من مبدأ الصلة التفاعلية من هنا فإنّ الأسلوب الذي تصاغ فيه الأشياء و الرؤى: « يرتكز ... في الكتابة على محوري الأفكار في عمقها و كثافتها والمفردات في انتقائها و تركيبها »⁽¹⁾ و هذا له أثره الصريح في رؤى المثل و إسهامه في الارتقاء الاجتماعي.

ب- تعدد المعنى للفظ الواحد:

من الظواهر التي رصدناها من خلال دراستنا لشروح اليوسي للأمثال ظاهرة

تركيزه على تعدد المعاني للفظ الواحد و من أمثلة ذلك ما أورده في شرح المثل:

إن كنت ذا طِب فطِب لعينيك.

يقول في شرحه: « الطب مثلثة الطاء: علاج الجسم. والطب أيضاً: الرفق والسحر. ولفظ

(طب) في المثل كذلك مثلث الطاء في الموضوعين، والمغى ظاهر. وفي نحوه قيل:

يا أيها الرجل المعلم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التعليم»⁽²⁾

ففي القاموس الجديد لا نجد من تفسير لكلمة (طب) سوى أنه علاج للنفس و الجسم. أما في لسان

العرب فقد وجدنا فعلاً ما قاله اليوسي من شروح، حيث جاء فيه أنّ مما تعنيه كلمة

الطَّب: « الرفق و الطبيب: الرفيق، كما أنّ الطَّب بضم الطاء يعني السحر، كما

أضاف أنّهم يكنون الطَّب بالسحر تفاؤلاً بالبرء كما كنوا عن اللديغ، فقالوا سليم، و عن

الصحراء بالمفازة و هي مهلكة تفاؤلاً بالفوز و السلامة»⁽³⁾.

ولكن ومع استشارة هذين المرجعين اللغويين لا نجد أيّاً منهما يذكر سبب تسمية

الطبيب بالرفيق، حتى اليوسي نفسه مع حرصه و دأبه لم يذكر ذلك، و نحن نرى أنّ سبب

تسمية الطب بالرفق هي أنّ كلمة (رفق) سلوك مصاحب لمهنة الطبيب، و هي بذلك تعبّر عن

تسمية الممارسة أكثر ما تعبّر عن المهنة نفسها.

1 - وائل بركات و عسان السيد و نجاح هارون، اتجاهات نقدية حديثة و معاصرة، منشورات جامعة دمشق، دمشق 2004، ص: 172.

2 - زهر الأكم، ج: 1 ص: 16.

3 - لسان العرب، مادة: طب.

إنّ اليوسي نفسه لم يبيّن سبب تسمية الطّب بالسحر على غرار لسان العرب، بالرغم من كون ذكر أسباب التسميات من المسائل التي حرص عليها اليوسي أثناء شروحه ، كما سنرى ذلك في مبحث لاحق. فهل هذا الإهمال ناتج عن تقصير أم خشية الإكثار و الإملا ؟ نرى أنّ اليوسي لا يخفى عليه سبب التسمية ، هذا ما تدل عليه قرائن عدّة في متن كتابه خصوصا إذا علمنا أنّ مصادره مصادر أصيلة (1) و لا يستبعد أن يكون لسان العرب أو الصحاح أحد مصادره الأساسية.

ج- الشرح بالأضداد:

من الظواهر الملفتة للانتباه، التي اعتمدها اليوسي في شرحه للأمثال ما يسمى الشرح بالأضداد و وفي هذه الأمثلة ما يلخص منهجيته تلك:
في المثل المعروف: حر انتصر.
يقول في شرحه: « الحر خلاف العبد وحر كل شيء خياره والحر الجيد. يقال: ما هذا بفلان بحر أي بجيد. قال طرفة بن العبد:

لا يكن حبك حبا قاتلا: ... ليس هذا منك ماويّ بحر» (2)

حيث يقدم اليوسي شرحا لكلمة (حر) و هو المعنى الأصلي للكلمة و المتداول مفسرا إياه بضده، ثمّ يسنده بمعنى فرعي، هو أنّ الحر من كلّ شيء جيده. أما في لسان العرب فيذكر أنّ الحر هو نقيض العبد، و الحرّ من كلّ شيء أعتقه. (3) يعني أجوده، و هو قريب من تفسير اليوسي.

من النماذج الأخرى التي نستعرضها دون إحالة أو موازنة، نذكر ما يلي:
شرح كلمة (اليد) على أساس أنّها الجارحة، و أنّها النعمة و هي مأخوذة من المثل: ذهبوا أيادي سبأ. (4) و معنى (الصول) الذي فسّره على أساس القهر و السطو أصلا، و الاستطالة فرعا في المثل: ربّ قول أشد من صول. (5)

1- زهر الأكم، ج: 1 ص: 16.

2- زهر الأكم، ج: 1 ص: 112.

3- لسان العرب مادة: حر.

4- زهر الأكم ج: 3 ص: 16.

5- المرجع نفسه ج: 3 ص: 43.

و تفسيره لكلمة (عنز) على أنها: الأنثى من المعز-و هي كذلك إسم فرس، و هي أيضا إسم قبيلة، و هي أيضا إسم أكمة في المثل: زدهم عنزاً⁽¹⁾، إلا أن ما أضافه من شروح في المثل الأخير لا نجد بعضها إلا في قاموس متخصص كمعجم البلدان، لأن أسماء الأعلام لا تتواجد بكثافة في المعاجم اللغوية.

و معنى (الدلدل) على أنه القنفذ أو أعظم القنافذ، و الدلدل بمعنى الإضطراب :

جاء الحزائم والزبائن دلد ... لا سابقين ولا مع القطان

أي لا إلى هؤلاء، و لا إلى هؤلاء في المثل: أسمع من دلدل.⁽²⁾

و في تفسير كلمة (الجعجعة) بأنها صوت الرّحى كمعنى أصلي والحبس

و التضييق، كمعنى فرعي في المثل: أسمع جعجعة ولا أرى طحنا.⁽³⁾

و(الأسوء) الذي بمعنى المداواة، و بمعنى الإصلاح في المثل: يشج مرة ويأسو أخرى.⁽⁴⁾

(الأزيمة) على أنها الشدة و على أنها القحط في المثل: اشتدي أزيمة تنفرجي! .⁽⁵⁾

و (الشرط) على أنه إلزام الشيء و التزامه، و هو بمعنى شق الجلد أيضا و ذلك في المثل:

الشرط أمك، عليك أم لك. . .⁽⁶⁾

أما شرحه لكلمة (النعام) في المثل: شالت نعامته. فإنه يستحق الوقوف عندها، إذ يظهر فيها جليا

أهمية، و جدوى ذكر المعنى الفرعي للكلمة، و هي خدمة معنى المثل خاصة، و الكلام العربي

عامة (*). فالنعامه هي الحيوان المعروف الذي يعيش في الصحاري، هذا المعنى

الأصلي، و الجلي الذي ذكره اليوسي لكلمة (نعامه) أكثر بإيراد عدد من الأمثلة

1- المرجع نفسه ج 3ص:149.

2- المرجع نفسه ج: 3،ص:174.

3- المرجع نفسه ج: 3ص:174.

4- المرجع نفسه ج: 3ص:217.

5- المرجع نفسه ج: 3ص:224.

6- المرجع نفسه ج: 3ص:230.

* إذ يبدو أن من أسباب الشرح المستفيض الذي اعتمده اليوسي إحيائه للغة العربية، و حفظه عليها، شأنه في ذلك شأن الهمداني في مقاماته.

أكثر بايراد عدد من الأمثلة: شالت نعامة فلان: أي هلك. و إذا سألنا ما علاقة من يهلك بنعامته أو باطن قدمه؟ فيجبينا: أنّ (النعامة): باطن القدم، و شالت: بمعنى ارتفعت و إنّ من شأن من هلك أن ترتفع رجلاه و ينكسر رأسه، فتظهر نعامة قدمه، و يستشهد بقول الشاعر الذي تمنى وفاة أمه:

ياليتما أمنا شالت نعامتها أيما إلى جنة أيما إلى نار!

ثمّ يزيد الأمر ايضاحا فيقول: تنعم فلان إذا مشى حافيا على نعامته (*)
كقوله:

تنعمت لما جاءني سوء فعلهم ألا إنّما البأساء للتعلم!

و اختلف في قول عنتره:

فيكون مركبك القعود و رحله و ابن النعامة عند ذلك مركبي

فقيل ابن النعامة: الطّريق، و قيل باطن القدم، و سمي الطريق بذلك لأنّه مركب له⁽¹⁾
زاد الاختلاف في قول عنتره ثراء و معرفة، و جعل المتلقي يدرك العلاقة الكائنة بين القدم و تسمية الطريق بالنعامة، حيث سُمي بذلك لأنّه مركب و موطأ النعامة، أي القدم. هذا يعود بنا دوما إلى ما ذكرناه من أنّ الاستعمال يولد المعنى و الدلالة.

إنّ الذي أورده اليوسي من الشروح والإيضاحات بشأن هذا المثل هو من الأهمية بمكان، حيث وضّح أنّ بعض المعاني في اللغة سهلة المأخذ، و بعضها الآخر بعيد شاق لا بدّ فيه من المرور بعدة أشواط و مراحل و هو بذلك يشبه الكناية بعيدة المنال في قولهم للكريم: إنّهُ كثير الرماد.

و الذي أوردها هنا غيظ من فيض مما تطرق إليه اليوسي ، بصدد شرح

الأمثال.

ثمة جملة أسئلة بحاجة إلى ذكرها، و هي لماذا لجأ اليوسي إلى الحرص على إيراد المعاني الأصلية و الفرعية لكل من مفردات الأمثال، و شرحه إيّاه بأضداده، و تبيان تعداد معانيها، مع أنّ الخصائص لم تتناولها حتى بعض المعاجم المتخصصة؟ ثم لماذا لم يكتفِ -كغيره من الشراح- بإيراد معاني الأمثال؟ و ما هدفه من هذا النهج الذي انتهجه؟ هل لإبراز ثراء معجمه اللغوي، أم ثمة غايات آخر؟

الظاهر أنّ اعتماد اليوسي على هذه الطريقة في شرح الأمثال هو منهجية معتمدة عنده و هذا ما يبدو حتّى في مصنفاته الأخرى، إنّه من غير المعقول أن نتوصل إلى الفهم الصحيح و الكامل لمعنى المثل و ترسيخه في الذهن و حفظه و تداوله و الاحتجاج به في مواقف معينة، دون فك رموزه الأولية المتمثلة في دلالة مفرداته المتعددة فمن أولى الأبجديات والخطوات في فهم الخطابات الأدبية فهم معجمها اللغوي، و لولا ذلك لما وُضعت المعاجم الضخمة لتتولى هذه المهمة و الذي يعجز عن فهم مدلول المفردة الواحدة لهو أعجز عن فهم النص كاملاً. و اليوسي باعتماده هذه المنهجية أغنانا من تصفح تلك المعاجم و من عناء البحث و التتقيب. و الدليل على ما ذهبنا إليه أنّه يضرب صفحا عن بعض مفردات الأمثال، متعللاً بكون المثل مفهوم أو ظاهر المعنى. كما أنّ ذكره لهذه الشروح يعدّ أكثر من ضرورة، و ليس أدل على ذلك من كون كثير من الأمثال التي أوردتها الميداني غير مدركة المعنى، لا لشيء سوى بسبب عدم شرحه للمفردات المكونة لجملة المثل، مثل عدم شرحه لكلمة (الطالع) في المثل: إذا نام طالع الكلاب، و كلمة (الحسل) و كلمة (مياس).

ومن غير المستبعد أن يكون من جملة تلك الأسباب أنّ اليوسي يرغب في إحياء اللغة الفصيحة من خلال بعث مفرداتها، لا سيما إذا تذكرنا أنّه أشار في مقدمة كتابه أنّه كتب على حين لم يبق من العلم إلّا رسمه، ومن التحقيق إلّا اسمه.

د-آلية التّأثيل:

من جملة ما حرص اليوسي على التركيز عليه، وهو يقرأ الأمثال ما يدعى: التّأثيل أو الإثالة أو علم تاريخ الألفاظ، أو علم التجدير، و بالإنجليزية ETYMOLOGY أو الإشارة إلى أصل تسمية المسمى، و (التي تتكون من مقطعين يونانيين: ETYMOS، و تعني الحقيقة، و المقطع الثاني LOGOS، و تعني اللفظ المشترك المستخدم هنا بمعنى الكلمة. و يعرف هذا العلم على أنّه علم عملية لسانية تعتمد المقارنة بين الصيغ و الدلالات لتمييز الأصول من الفروع. و من ناحية أخرى عملية تاريخية حضارية، لأنّها تستعين بدراسة المجتمعات و المؤسسات و سائر العلوم و الفنون للبتّ في القضايا اللسانية بالإضافة إلى مقارنة الألسن لمعرفة أنسابها و أنماطها لأنّ اللسان الذي يكون فرعاً تكون ألفاظه فروعاً. يكون التّأثيل

بدراسة الأصل التاريخي للكلمات، و يعتمد في ذلك على تتبع تطوّر الكلمة من خلال الوثائق و المخطوطات، و أحيانا تاريخ المجموعات البشرية الناطقة بهذه الكلمات).⁽¹⁾
 فالى أي مدى وُفق اليوسي في تجسيد مفاهيم هذا العلم؟ و ما الغاية من الإشارة إلى أصول الكلمات؟ و ماذا يستفيد المتلقي من إطلاعه على هذه الأصول؟ و هل في ذلك زيادة في الدلالة و تبليغ الرسالة؟

إننا لا ندعي أنّ اليوسي عالم انتروبولوجي استطاع تجسيد كل مفاهيم هذا العلم الذي تمتد جذوره إلى القرن الخامس قبل الميلاد⁽²⁾ و لكن كانت له إشارات لأصول الكلمات أو أصول تسمياتها سنستعرض بعضها في المبحث التالي لنصل بعد ذلك إلى مدى توفيقه من عدمه و تحقيق الغاية من ذلك أم لا.

يقول عن كلمة (الجواد): في المثل: **إنّ الجواد عينه فرارة**. هو العتيق من الخيل الكثير الجري، ثمّ يقول و سمي بذلك لأنّه يجود بنفسه⁽³⁾، أما في المثل: **الجواد يكبو**. فيفسر الجواد: هو الكريم من الخيل، يجود بما في طاقته من الجري «⁽⁴⁾»، لم يشر هنا أنه سمي جوادا لأنّه يجود بنفسه مثلما هو الأمر في المثل السابق، و لكن هذا ما يستشف من ثنايا كلامه، و من عادة اليوسي كرهه للتكرار، و كثيرا ما يشير إلى ذلك صراحة و باللفظ، و لكن هل بين الجود بالنفس، و الجود بأقصى الطاقة تناقضا؟ نرى أن ليس هناك أيّ تناقض لأنّ الجود بأقصى الطاقة قد يفضي أحيانا إلى الجود بالنفس. و الجود في المال قد يفضي إلى الفقر أحيانا خصوصا إذا بُلغ فيه و تجاوز مقدار الاعتدال، و لهذا قال الشاعر:

لولا المشقة ساد الناس كلّهم
 الجود مفقر و الإقدام قتال

و في المثل: **إنّه لنكد الحظيرة**، يفسر (الخطيرة) قائلا: «الخطيرة، و الحظار بالطاء المشالة: ما يجعل للماشية و يحاط بالشجر و نحوه لتأوي إليه و يمنعها من الحرّ و القرّ لأنها من الحظر أي المنع «⁽⁵⁾ ففي لغة الاستعمال و التداول لا يعرف من (الخطيرة) سوى أنّها مأوى للمواشي، أو مرأب للسيارات كما استعير حديثا، أما لماذا سميت الخطيرة بالخطيرة؟

من 84%D9%8A%D9%84%AB%D8%AA%D8%A3%D8%AB%D9%8A%D9%84: http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AA%D8%A3%D8%AB%D9%8A%D9%84-1-VOIR

(ويكيبيديا: /

2-م.ن. (رقم:1).

3- زهر الأكم، ج:2، ص:52.

4- زهر الأكم، ج: 1، ص:106.

5- المرجع نفسه.

فإنّ اليوسي يجيبنا أنّها من الحظر أي المنع، أي يمنع الماشية من الحر و القر ، و من السطو كذلك و قس على ذلك.

أما في المثل: **إنّ البغاث بأرضنا يستنسر** ، فيفسر كلمة (النسر) قائلًا: استنسر صار نسرا، والنسر الطائر المعروف، و سمي نسرا لأنه ينسر اللحم⁽¹⁾ ، و معنى ينسر في القاموس: ينتفه، و يقطعه⁽²⁾ يلاحظ أنّ أصل التسمية عادة ما تأتي من الفعل الذي يقوم به المسمى فالجواد وجود، و النسر ينسر، لأنّ الفعل هو الذي ينشط على مستوى الأزمنة الثلاثة(الماضي- والمضارع:الذي للحال و الاستقبال)، عكس الأسماء التي تتميز بالثبات و الاستقرار.

و في المثل: **رعى فأقصب** ، فإنّه يعزو تسمية الجزار (بالقصاب) لكونه يقصب اللحم أي يقطعه، و يزيد الكلمة إيضاحا بالإتيان بأمثلة أخرى و يقول:قصب البعير و غيره أي قطعت عنه شربه قبل أن يروى، و قصب البعير شربه أيضا إذا امتنع منه قبل أن يروى، فهو بعير قاصب.قال الراجز: و هنّ مثل القاصبات القمح.

«و أقصب الرجل إذا فعلت إبله ذلك فيقال: رعى فأقصب.مثلا للراعي المسيء الرعي، و ذلك أنّه إذا أساء رعيها فخلت أجوافها من الكلاً، امتنعت من الشرب إذ لا تشرب على جوع، فكان امتناعها من الماء كناية عن تجويعه إيّاها».⁽³⁾

من جيّد ما أشار إليه في أصول التسميات سبب تسمية البيع (بالصفقة) في المثل: **شغلهم الصفق بالأسواق**، فقال (الصفق) الصفق بالأسواق أي الاشتغال بالبي ع و الشراء لأنّ المشتري و البائع يضرب أحدهما بيده على يد صاحبه، و هو (الصفق) أي يحدث نوع من التصفيق عندما يضرب البائع و المشتري يديهما ببعض إيذانا بإتمام الصفقة.⁽⁴⁾

نلاحظ أنّ لبعض الأصوات نوعا في التأثير في ولادة بعض الكلمات، و هذا ما تشير إليه حيثيات هذا العلم حيث جاء في هذه الوثيقة: « أصبح التأثيل أكثر علمية بعدما بدأت أوربا دراسة اللغة السنسكريتية في القرن التاسع عشر، و نشأة نظرية الأصول المشتـركة للعائلات اللغوية، و ما نتج من قوانين تفسر المتغيرات المؤثرة في تشكيل الكلمات في مختلف اللغات، و نضجت هذه القوانين لتصبح علم الصوتيات الذي يدين له تطور الأتالة بالفضل».⁽⁵⁾

1- المرجع نفسه ، ج: 1ص:102.

2- القاموس الجديد، ص:1217.

3- زهر الأكم،ج:3 ص:57، 58.

4- م.ن،ج:3، ص:233.

5- أنظر المصدر السابق في وكيبيديا.

و من أفضل ما يستدل به في هذا الباب كذلك تفسير اليوسي للمثل: **أتجر من عقرب** ، إذ يقول: **تجر في الشيء و يتجر، على مثال كتب يكتب فهو تاجر، و التاجر من يبيع و يشتري كل شيء ، و جمعه تجار و تجر، و قد يطلق على بائع الخمر خاصة، و هو كثير الاستعمال عند العرب في الجاهلية قال امرؤ القيس:**

كأن التجار أصعدوا بسبيئه... من الخص حتى أنزلوها على يسر (1)

حيث نبّه اليوسي هنا أنّ كلمة (تجار) تطلق على بائع الخمر في تقاليد عرب الجاهلية، و هو نوع من الدراسة التاريخية لأصل الكلمة ، و تحوراتها و توسعها في الاستعمال حتى غدا كل من يبيع و يشتري(و إن لم يكن خمرًا) تاجرا.

بعد استعراض قسم من أصول هذه التسميات، هل أفاد ذلك الدلالة شيئاً ؟ و هل زيد المتلقي ثقافة؟ نرى أنّ الإجابة بالإيجاب، إذ إنّ معرفة أصل الكلمة تفيد المتلقي أولاً من الناحية التاريخية، مثلما رأينا في ملفوظ (التاجر)، كما أنّ معرفة أصول التسمية تسهل على الذاكرة عملية الاستحضار، و على اللسان عملية الاستعمال، خصوصاً إذا علمنا أنّ أغلبية هذه الكلمات لها قواسم صوتية مشتركة في جذورها مع أصولها، و لا يخفى ما في الأصوات و النبرات من دور في الدلالة.

-القراءة الصرفية-

من المسائل التي أولاها اليوسي أهمية، و هو يشرح الأمثال من الناحية الصرفية للألفاظ المكونة لجملة المثل خلافا لأبي الفضل الميداني الذي قلّمَا يشير إلى هذه الناحية اللغوية الهامة. فما هو سبب إيلاء اليوسي أهمية لهذا الجانب اللغوي؟ و هل الإشارة إلى ميكنزمات تصريف الكلمة تخدم الدلالة في المثل لا سيما أنّها المقصدية الأولى و الأخيرة من أي دراسة للأمثال؟ ذلك ما سنحاول الإجابة عنه من خلال هذا المبحث.

لو بحثنا عن سيرورة هذه الظاهرة لاستنتجنا أنّها لم تعد تعنى بتصريف الكلمات و التعريف بتقلباتها في الأزمنة المتعددة، بل أصبحت تمتدّ لأداء وظيفة تواصلية، (بل توسع فيها حتى شملت جانبا من النقد الأدبي لإظهار الوحدات الثابتة في الأعمال الأدبية و بالأخص في النصوص السردية)⁽¹⁾.

حذف اللام:

يقول في شرحه للمثل: « يأتيك كلّ غدٍ بما فيه. الغد معروف ، و أصله غدو، ثمّ خفف بحذف لامه ، و قد يؤتى به على أصله قال لبيد:

وما الناس إلا كالديار وأهلها ... بها يوم حلوها وغدوا بلاقع».

فاليوسي في هذا النموذج أشار إلى البنية المورفولوجية للفظة (غد) على أساس أنّ أصلها (غدو)⁽²⁾. ثمّ إنّهُ لم يكتفِ بذكر ذلك الأصل بل لجأ كذلك إلى توثيقها ببيت شعري لبيد. و لكن ما الغرض من ذكر الناحية الصرفية لهذه اللفظة؟ يبدو أنّ اليوسي قد استرعت انتباهه هذه الكلمة لما فيها من الشذوذ الصرفي (إن صح التعبير)، فهما كلمتان لا تصرفان لعدم استكمالهما النصاب القانوني لعدد الحروف و هو ثلاثة، و لكن لما كان أصلهما مثل أصل الكلمتين (دمو)، و (يدي) أمكن ذلك منهما. و هو أمر يستحق الإشارة إليه فعلا لأنّه إسم متحول غير أصلي. و ثمة احتمال آخر مرجح و هو أنّ اليوسي غرضه تعليمي ، إذ بدون الإشارة إلى هذا التعديل الحاصل في الكلمة يكون الإنكار لبيت لبيد الذي لم يرد بالصورة الاعتيادية الاستعمالية لكلمة (الغد). و ربما نستطيع القول إنّ علم الصرف يشبه إلى درجة ما علم تاريخ الكلمات و العلامات ما دام يتحدث عن الأصل و الأصل غير المحدث، على الرغم من أنّ الأصل هنا قد يكون تخيليا له علاقة بالتفعيد النحوي.

1- محمد سعيد اسير و بلال جنيد ، الشامل في اللغة العربية و مصطلحاتها ، دار العودة بيروت 1981 ص: 282 و 291.

2- زهر الأكّم ، ج: 1، ص: 63.

اجتماع المصروف و الممنوع من الصّرف في الكلمة الواحدة:

إنّ لهيآت الاشتقاق و صيغه أهمية واضحة في الإبانة عند الدلالة و القصد، حيث ينفذ اليوسي ببصيرته و يستنتج من خلال جملة المثل الموعلة في القصر قواعد صرفية هامة تؤدّي دورا هاما في الدلالة، و خير دليل ما أورده في شرحه للمثل:

آلف من غراب عقّدة، يشي إلى قضية هامة أثناء تعرضه للناحية الصرفية حيث يقول: « (عقّدة)، بضم العين المهملة، وسكون القاف: موضع. وهي أيضاً المكان المخرب الكثير الشجر أو النخل. وإنما وصف غراب عقّدة بالألفة لأنه لا يطير لكثرة الشجر. إلا أنّ عقّدة، إن جُعلت مكان بعينه، لم تصرف؛ وإن جعلت اسما للمكان المخرب مطلقا صرفت⁽¹⁾

يبين اليوسي الناحية الصرفية لكلمة (عقّدة) فيقول إنّها مزدوجة الاستعمال، متصرفة و غير متصرفة، و لكنه لم يذكر بالإسم لماذا تمتنع عن التصريف إلا أنّ ذلك بين من قوله موضع أي اسم مكان، أي اسم علم، واسم العلم لا يصرف.

ازدواجية الفعل في التعدي والنزوم:

من الأمثال التي قرأها اليوسي قراءة صرفية كذلك : أي داء أدوى من البخل؟ يقول في شرحه صرفيا: « داء الرجل يداء دواء وداء وداء، فهو داء ومديء وأدائه أيضاً: أصبته بمرض، لازم مبعدي»⁽²⁾

لا شك أنّ الذي أملى على اليوسي هذه الإشارة الصرفية في هذا المثل، مادة الفعل التي تصلح أن تكون فعلا لازما و متعديا بوساطة إضافة بعض الحروف إلى بنيتها، إذ من المعلوم أنّ الفعل اللازم هو (الفعل الذي لا يتعدى أثره فاعله، و لا يتجاوز به إلى المفعول به بل يبقى في نفس فاعله مكتفيا به غير محتاج إلى مفعوله، و لهذا يسمى الفعل القاصر و غير المجاوز لأنه قصر عن المفعول به و لم يقع عليه و لم يتجاوز الفاعلية ليصل إلى المفعول به...) (3) أما أسباب تعدية الفعل فهناك أسباب ثمانية، نكتفي بذكر سبب الفعل الذي نحن بصدد دراسته و هو دخول ما يسمى بهمزة التعدية عليه⁽⁴⁾ و همزة التعدية هي همزة تضاف إلى ماضي لازم لجعله متعديا إلى واحد، و في أول الماضي المتعدي إلى واحد لجعله متعديا إلى

1- زهر الأكم، ج: 1 ص: 64 و 65.

2- المرجع نفسه ص: 139.

3- الشامل: ص: 741.

4- أنظر الشامل مادة: تعدية. ص: 310.

اثنين.⁽¹⁾ و اليوسي في قراءته لم يذكر هذه التفاصيل، و لكن كانت منه مجرد إملاء و لكنها كافية لتدفع إلى البحث و التنقيب، لأنّه أن يتحول الفعل اللازم الملتزم إلى فعل متعد فلا بدّ له من أسباب و قواعد تسوّغ له ذلك و هو ما تبين لنا فعلا في مراجع اللغة و لعل الدفع إلى البحث و الاستقصاء واحد من أهداف اليوسي في قراءاته المتميزة.

تغير الدلالة بتغير الشكل:

أما المسائل الصرفية التي أشار إليها في قراءاته متعددة الأبعاد، الفتح و الكسر في الأفعال بحسب تغيير الأحوال . و هذا ما صاحب شرح المثل القائل:

أبعدي عني ظلك، أحمّل حملي وحمك!

إذ علق: «و الحمل إذا أطلق على ما يحمل من الأمتعة على ظهر أو رأس فهو بكسر الحاء؛ وإذا أطلق على ما في بطن الأنثى فهو بالفتح؛ وإذا أطلق على ثمر الشجر فهو بالوجهين لما له من الشـبـه بالأمرين. هكذا قال بعض اللغويين وقال: ما بطن من الثمار فبالفتح وما ظهر فبالكسر. وقيل إنّ الثمر كله بالفتح كما في البطن. وقيل إنّ الثمر بالكسر ما لم يكثر ويعظم فإذا كثر فبالفتح»⁽²⁾

و يستنتج من هذه الأمثال، الثقافة الواسعة التي يتمتع بها اليوسي و في سائر النواحي اللغوية، بل في معظم العلوم الإنسانية المعروفة في عصره. و هذا ما سنتناوله لاحقا من ذلك أنّه طویل الباع في المسائل النحوية و الصرفية، و حتى في المسائل الخلافية منها و كثيرا ما كان يشير إلى ذلك في ثنايا كتابه. و من خلال هذا المثل كشف لنا تشعب المسائل الصرفية بخاصة في تعريف الأفعال، بحيث يفتح الفعل (حمل) بحسب نوع المحمول، أو قلته أو كثرته، و يستند اليوسي في تحليلاته إلى أقوال اللغويين، لكن و مما يؤاخذ عليه عدم ذكره المصادر التي استقى منها معلوماته فيوتقها، و هذا يخدم الباحث الذي يريد الاستزادة من العلم لا سيما إذا علمنا أنّ من أهداف اليوسي في ذكر هذه المسائل الغرض التلقيني. و لكن لعل الذي يشفع لليوسي أنّ هذه المنهجية لم تكن معمولا بها عصرئذ، هذا احتمال أول، أما الإحتمال الثاني أنّه يخاطب متلقين على درجة من العلم و الثقافة مما لا يستوجب معها ذكر تفاصيل المصادر. مع أنّه يشير إليها بين الفينة و الأخرى. و قد لوحظ أيضا أنّ اليوسي يستعمل نوعين

1- الشامل، ص:13.

2- زهر الأكم، ج:1 ص:197.

من الخطاب، خطاب بسيط تفهمه العامة، و خطاب خاص لا يفهمه إلا من كان أفق توقعه و اسعا و مرجعيته الثقافية شاملة.

إِسْمُ التَّفْضِيلِ، الشَّنُودُ وَالْحَنُّ:

من الدروس الصرفية الهامة التي تعرض لها و هو يشرح المثل: (أبخر من أسد) إسم التفضيل ، و الذي يعني: تغليب أحد إثنين اشتركا في صفة فزاد أحدهما فيها على الآخر، و هو إسم مشتق على وزن (أفعل) للمذكر ، و فعلى للمؤنث، يؤخذ من الفعل ليدل على أن شيئين اشتركا في صفة و زاد أحدهما فيها على الآخر مثل: الفرزدق أشعر من جرير، ففي معادلة التفضيل نجد: المفضل (الفرزدق) أو المفضل عليه (أي المفضول جرير)، إسم التفضيل: (أشعر)، الصفة التي يجري فيها النفاضل (الشعر).

و يصاغ إسم التفضيل من الفعل الثلاثي المثبت المتصرف التام المبني للمعلوم القابل للتفضيل غير الدال على لون أو عيب أو حلية... (1)

إذا استعرضنا ما قاله اليوسي في شرح المثل بمناسبة ورود إسم التفضيل فيه، ثم نقارن بينه و بين القاعدة، فإننا نخرج في الأخير باستنتاج يقول اليوسي: « بخر بالكسر، فهو أبخر وهي بخراء. وعلى هذا فالقياس أن لا يصاغ التفضيل من لفظه، بل يقال: أشد بخرأ. فإن صح ورود لفظ المثل عنهم كان من الشواذ: وإلا فهو لحن» (2).

فالقارئ لما ذكره اليوسي لا يجد ذكرا لسبب عدم جواز صياغة إسم التفضيل من لفظ (بخر) و لا ندري هل هذه التعمية مقصودة و فجوة متروكة ليُعمل المتلقي فكـره و يندفع بحكم الفضول العلمي للبحث عن السبب؟ و مهما يكن فعند العودة إلى القاعدة و إجراء مقارنة و بحث السبب فإن سبب عدم إمكان الصياغة هو كون لفظ (البخر) مما يعاب به و القاعدة تقول: « لا يصاغ اسم التفضيل من عيب و لا حلية، و إذا أُريد صياغة اسم التفضيل من فعل مخالف للشروط فإنه يُؤتى بمصدره منصوبا على التمييز بعد لفظة (أشد) أو (أكثر) و ما بمعناها » (3) ، وهذا ما أشار إليه اليوسي (بأشد بخرأ)، و لكنه قدّم نتائج و لم يعطنا مقدمات، أو سببا دون مسببات، و كأنها فجوات مقصودة يختبر بها ذكاء المتلقي، هل

1- الشامل، ص: 330.

2- زهر الأكم، ج: 1، ص: 177.

3- الشامل، ص: 334.

سيتمكن من ملئها أم لا. و ليس شرط صياغة اسم التفضيل هو كل ما أفاد به اليوسي في قراءته الصرفية لهذا المثل ، بل تعرض أيضا لقضيتين لا تقلان أهمية عن الدراسة الصرفية و هو الشذوذ في اللغة و اللحن فيها و هما مبحثان يضيق بهما ما نحن فيه، و لكن نشير أن اليوسي وضع أحد احتمالين لورود اسم التفضيل على هذه الصيغة و على هذا الوزن الصرفي، فإما شذوذ في اللغة مخالف للقاعدة المطردة، و إما لحن و خطأ ممن أطلق المثل لأول مرة و ليس هذا غريباً، فنصوص الجاهلية ورد فيها كثير من اللحن و الشذوذ، و إن تكن هذه النصوص نفسها مصدراً للغة.

نشير دون الرجوع إلى مصادر اللغة محض إشارة، أن اليوسي عالم باللغـة و بشواذها، و ما يخرج عن قياسها ، و في هذا المثل الذي بين أيدينا بعد أن يحلل و يناقش ويستعرض آراء غيره من اللغويين مثل الجوهري صاحب الصحاح، يخلص إلى نتيجة يطمئن بها بعض الإطمئنان من أن ورود المثل على هذه الصيغة يمكن أن يكون من باب يجوز في الأمثال ما لا يجوز في غيرها و هذه القضية أشار إليها سيبيويه عن الأمثال التي خالفت القواعد النحوية.

ذهب بعض الباحثين إلى أبعد من هذا ،فذكروا أن العرب أضفوا على الأمثال نوعاً من القدسية(بسبب عدم تغييرهم لها و إن لوحظ فيها خطأ) تضاهي تقديس اليهود و النصارى للتوراة و الإنجيل. و نحن نقول إن صحّ هذا فإنّ العرب أكثر تقديساً لأنّ أهل الكتاب حرقوا كتبهم، و العرب تركوا أمثالهم على علاتها دون تغيير أو تبديل و لشدة تشبثهم بلغتهم و و تقديسهم لها قيل: إنّ العرب كانوا عبدة بيان قبل أن يكونوا عبدة أوثان.

إنّ في زهر الأكم من معارف الصرف و من الإشارات إلى عناوينها ما لو تتبّع لكان بحثنا مستقلاً.

-القراءة النحوية-

أخذ الجانب النحوي أكبر نصيب من قراءة اليوسي للأمثال، و هذا ما حدا بمحقيقي كتابه إلى كتابة مقال في جريدة المناهل بعنوان (اليوسي اللغوي) (1)، و ذلك لما أولاه من أهمية لهذا الجانب أثناء دراسته للأمثال. و لكن لماذا أعطاه هذه الأهمية أكثر من غيره؟ هل ذلك يحيل إلى مرجعيته الثقافية و طبيعة تكوينه؟ أم أنّ المثل يخدم بمجسة النحو أكثر مما يخدم بغيره من المجسات؟ و ما الذي أفاد به فعليا هذه الأمثال بوساطة هذه القراءة النحوية؟ ذلك ما سنحاول الإجابة عنه في هذا المبحث.

هذه بعض النماذج النحوية و الإعرابية التي أشار إليها اليوسي في قراءاته للأمثال.

النَّصْبُ بِعَامِلٍ غَيْرِ مَرْتِي:

يقول عن بيت لعمر بن معدى كرب:

أريد حياته ويريد قتلي ... عذيرك من خليلك من مراد

و«هذا مثل مشهور كان علي كرم الله وجهه فيما يروون يتمثل به عندما يرى ابن ملجم. وتمثل به غيره أيضاً كما في حرف الهمزة. والعذير: العاذر والحال التي تحاولها لتعذر عليها. والعرب يقولون: عذيرك من فلان وينصبونه بعامل لا يظهر. والمعنى: هلم من يعذرك من فلان فيلومه ولا يلومك كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: من يعذرنى من أناس أبناوا أهلي في حديث الإفك» (2)

و كما هو دأب اليوسي فإنه يترك فجوات يضطرنا للبحث عن مصادر لها لملئها.

ففي إشارته إلى النصب بعامل غير مرتي يحيلنا إلى عنصر معروف في قواعد اللغة و هو (العامل) فالعامل في النحو هو ما يؤثر في اللفظ فيجعله منصوبا أو مرفوعا أو مجرورا أو مجزوما.

و يقسم العامل من جهة عمله إلى ثلاثة أنواع، و من جهة طبيعته إلى نوعين: فمن جهة عمله: عامل أصلي، عامل زائد، و عامل شبه زائد. و نكتفي نحن بإثنين فقط. أما العامل من جهة طبيعته:

1 فعامل لفظي يظهر في الكتابة و النطق كحروف الجر و النصب و الجوزم و الفعل المضارع.

1- زهر الأكم، ج:1ص:6.

2- زهر الأكم، ج:2ص:306.

- وعامل معنوي يُدرك بالعقل: مثلاً أنّ العامل في المبتدأ الذي رفعه هو الابتداء، و الابتداء مفهوم عقلا لا لفظا و لا كتابة⁽¹⁾ هذا الذي عناه اليوسي بالعامل غير الظاهر و هو العامل المعنوي الذي لا يظهر (فهو مضمّر)، و إنّما يظهر أثره في معموله و قد نصب، و لكن لتوضيحه يمكن تقديره كما فعل اليوسي من أنّ تقديره: (هلم من يعذرني من فلان). و العامل المعنوي هنا حسب هذا التقدير هو: اسم فعل أمر غير الظاهر، و لكن مفهوم من سياق الكلام.

لا يشير اليوسي إلى جميع القواعد النحوية الواردة في الأمثال على كثرتها، بل إنّهُ ينتقي الصعب و الشاذ منها و للوصول إليها لا بد من كثرة البحث و التنقيب.

ثمّ إنّ لمعرفة العامل أثرين: (الأوّل يساعد على فهم المعنى، و الثاني يسهّل الإعراب)⁽²⁾ يذكرنا إدراك العامل المعنوي بوساطة العقل بما أشرنا إليه من كون النحو ذا صلة و علاقة بالمنطق، (و المنطق آتته العقل، و لهذا السبب يعزو البعض أيضا صعوبة النحو)⁽³⁾ حذف النون للإضافة:

يعلق اليوسي على البيتين الشعريين:

وما رحم الأهلين إن سالموا العدى ... بمجدية إلا مضاعفة الكـرب
ولكن أخو المرء الذي إذا دعـا ... أجابوا بما يرضيه في السلم والحرب

و على قول الشاعر:

ما المرء أخوك إن لم تلفه وزرا... عند الكريهة معوانا على النوب
: «و أعلم أنّ لفظ الأخ فيه لغات كثيرة: يقال أخ، وهي اللغة المشهورة، وأخو بسكون الخاء على مثال فروّ، وهو الواقع في البيت المذكور ويقال في الجمع إخوة وأخون، وهذا الثاني هو الواقع في البيت الثاني من البيتين قبل هذا، وحذفت نونه للإضافة إلى المرء، وليس مفردا بدلـيل الإخبار عنه بالذين». (4)

يستخلص اليوسي أنّ في كلمة (أخ) لغات، و بيّن صيغ جمعها و لكن أفضل من كلّ ذلك استنباطه من البيت الشعري أنّ (أخو) جمع، و ليس بمفرد و استدل على ذلك باسم الموصول (الذين) المخصص للجمع دون الأفراد و اللافت

1- الشامل، ص: 585، 586.

2- م.ن، ص: 597.

3- إميل بديع يعقوب، معجم الإعراب و الإملاء، مطبعة الرهان الرياضي الجزائري، (ب.ت) ص: 07.

4- زهر الأكّم، ج: 1 ص: 260.

للاِتِّبَاهِ أَنَّ الصَّوْرَةَ البَصْرِيَّةَ لِكَلِمَةِ (أَخَوْ) تَوْقَعُ فِي الخَطَأِ مَا لَمْ تَكُنْ تَقَافَةَ المَتَلْقَى بِحِجْمِ تَقَافَةِ اليُوسِيِّ مَعْرِفَةَ بِاللِّغُوِّ وَ النُّحُوِّ وَ بِخَلْفِيَّةِ مَعْرِفَةِ مُوسَوِيَّةِ، خِصُوصًا إِذَا كَانَ النِّصُّ غَيْرَ مُضَبُوطٍ بِالشَّكْلِ، فَلَا فَرْقَ سَاعَتُنْذِ بَيْنَ (أَخُو) الفَرْدِيَّةِ وَ (أَخُو) الجَمْعِيَّةِ. وَ نَحْنُ -بِدَوْرِنَا- اسْتَطَعْنَا رِصْدَ عُنْصُرٍ آخَرَ لَمْ يَشِرْ إِلَيْهِ اليُوسِيُّ، وَ هُوَ يَعْضُدُ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ مِنْ أَنَّ (أَخُو) جَمْعٌ وَ لَيْسَ إِفْرَادًا، وَ هَذَا العُنْصُرُ يَتِمَّتْ فِي الفِعْلِ: (أَجَابُوا)، فَلَوْ كَانَتْ (أَخُو) لِلْإِفْرَادِ لَجَاءَ الفِعْلُ (أَجَابَ)، وَ لَيْسَ: (أَجَابُوا).

حذف الموصول الثاني اختصاراً:

يقول اليوسي في شرح المثل: **جاء بما صأى وصمت** «أن التقدير في المثل هو كما يلي: **جاء بما صاء و بما صمت**، فحذف الموصول الثاني اختصاراً، كقول حسان رضي الله عنه: **أمن يهجو رسول الله منكم ... ويمدحه وينصره سواء؟**

أي من يهجو و من يمدحه، لاستحالة اجتماع الوصفين في موصول واحد، و كذا الصَّنْئِيُّ وَ الصَّمْتُ لَا يَجْتَمِعَانِ. وَ الصَّامِتُ مِنَ المَالِ: الذَّهَبُ وَ الفِضَّةُ. وَ النَّاظِقُ: الإِبِلُ مِثْلًا» (1)

أشرنا في بداية البحث أن اليوسي من الملمين بعلم المنطق، ذلك ما بدا لنا، و نحن في طبيعة المثل عند اليوسي، و هذا ما تؤكد لدينا، و نحن في قسم تحليل متن كتابه عندما شرع في شرح الأمثال و استنباط القواعد النحوية و الصرفية هذا هو العلم الذي وظفه للوصول للنتيجة التي آل إليها في هذا المثل بالذات، و هو استنباط حذف اسم الموصول الثاني اختصاراً ودليله إلى ذلك أن الضدين لا يجتمعان، أي أن يكون الشيء ناطقاً و صامتاً في ذات الوقت لا سيما في موضوع المال الذي هو محل البحث هنا. فالذهب و الفضة جامدان غير ناطقين، بينما الإبل (الذي ضربه مثلاً) ناطقاً. إن اليوسي عندما لاحظ أن الضدين لا يجتمعان طرح تساؤلاً كيف اجتماعاً إذن في هذا المثل؟ أي أن اجتماع الضدين (و هو من المستحيلات) يشي بأن أمراً ما يكون قد حدث في تركيبية هذا المثل، الحذف أو الزيادة أو التقديم أو التأخير أو التقدير و ما إلى ذلك من طرائق العربية في الصياغة.

إن ما تعرض إليه اليوسي صحيح، إذا كان ما ذكره من صفات قارة و لازمة غير عارضة، كالأمثلة التي ذكرها (الإبل و الذهب و الفضة) أما إذا كان صفة عارضة فإنّ بمقدور الإنسان مثلاً أن يصيء حيناً، و يصمت حيناً آخر بحسب إرادته، و لكن الذي يُستدرك من القول بأن ذلك مستحيل أن يكون الكائن صامتاً و ناطقاً في الوقت ذاته. و قضية اجتماع

الضدين من المسائل التي تمت مناقشتها في عدد من المناسبات عند ورودها في كلام العرب كالذي قاله امرؤ القيس في وصف فرسه:

مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل

طُرح سؤال كيف يكون هذا الفرس (مكر مفر)، و (مقبل و مدبر؟) في الوقت ذاته؟

فيجيب عن ذلك أبو عبد الله الحسين الزوزني في مصنفه الموسوم بشرح المعلقات السبع:

« هذا الفرس مكر إذا أريد منه الكر، و مفر إذا أريد منه الفر، و مقبل إذا أريد منه

الاقبال و مدبر إذا أريد منه الإدبار. ثم يقول: و قوله معا يعني أنّ الكر و الفر و الإقبال

و الإدبار مجتمعة في قوته لا في فعله لأنّ فيها تضاد». (1)

إنّ المثل العربي يتسم بالإخـتصار و التكثيف، و قد رأينا شاهدا من خلال ما

سبق.

الأتباع:

نكاد نقول عن الاتباع ما قاله عبد الله إبراهيم عن الرّجز من (أنه ضائع الهوية بين

إيقاع شعري، و مقاصد نثرية) (2)، فكذلك الاتباع فهو ينتمي للنحو من حيث دراسة حركاته

الإعرابية، و ينتمي إلى العروض، و موسيقى الشعر من حيث نبرته الصوتية حتى ترددنا في

تصنيفه عروضيا أو نحويا و أيا كان فإنّ ظاهرة الاتباع متواجدة بقوة في المثل العربي كان لها

نصيب من اهتمام اليوسي و قراءاته التفحصية للأمثال و في عدّة مواضع من مصنفه إلا أنّه

قبل التطرق إليها نوّد معرفة الاتباع؟ جاء في معجم الشامل أنّ الاتباع في اللغة: مصدر (اتبّع)

و يكون بجعل الكلمة الثانية تابعة للكلمة الأولى: جاء الرّجلُ الكريمُ، الكريمُ: صفة

للرّجل تابعة له في الإعراب، و يكون الاتباع في الحروف: ضربتمُ اللصّ (ضمة الميم) في

ضربتم اتباع لضمة التاء قبلها، و يكون الاتباع في إضافة كلمة ثانية لا معنى لها إلاّ تحقيق

الإيقاع اللفظي مثل: حسنٌ بسنٌ، و كثيرٌ بثيرٌ، و حارٌّ ثارٌ*، و يكون الاتباع أخيرا في قراءة

القرآن (الحمد لله الحميد) بكسر الدال في الحمد اتبعا للام المكسورة بعدها، و قد قرئت

بالضم و هو الأسهل. (3)

1- أبو عبد الله الحسين الزوزني، شرح المعلقات السبع، مكتبة المعارف ط5 بيروت 1985، ص:44.

2- عبد الله إبراهيم، التأويل و السياقات الثقافية، منشورات الإختلاف، ط2، الجزائر 2005، ص:107.

* و هذا الذي يمكن أن ننسبه إلى الدراسة العروضية.

3- الشامل، ص:42.

أما التعريف من غير الشامل، و من الكتب النقدية فيقول حسين نصار: « أحسن تعريف ينظر إلى هذا الجانب-أي الصورة-للاتّباع هو ما جاء به حمد بن فارس: « الاتّباع أن تتبع الكلمة كلمة على وزنها أو رويّها إشباعاً و توكيداً، فإذا كان اتحاد الرّوي غير لازم و اتحاد الوزن غير محتمّ فإنّ الاتّباع لا يخلو منهما معاً»⁽¹⁾

من النماذج التي أوردها اليوسي للاتّباع في مباحثه اللغوية للأمثال المثل: **خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة.** « فللسكة: الحديدية التي تضرب عليها الدراهم، والتي يحرق بها. وتطلق أيضاً على السطر من الأشجار؛ والمأبورة: المصلحة، يقال: أبر نخله يأبره: ألقحه وأصلحه؛ و المهرة معروف، والمأمورة: الكثيرة النسل والنتاج. تقول: أمرته بالمد: كثّرتة. فكان القياس أن تقول أعمرتها فهي معمرة، ولكنه قيل مأمورة إتّباعاً لمأبورة، كما قيل لا دريت ولا تليت أي تلتوت وأرجعن مازورات، غير ما جورات أي موزورات»⁽²⁾

إلا أنه يلاحظ أنّ النماذج التي أوردها اليوسي عن الاتّباع كلّها ذات معنى عكس ما أشار إليه التعريف بأن الكلمة الثانية، لا يكون لها معنى، إنّ الحقيقة و بعد الدراسة تبين أنّ كلا الرأيين على شطر من الصواب، إذ من الاتّباع ما يكون له معنى (مثل أمثلة اليوسي)، ومنه ما لا يكون لها معنى كالأمثلة الواردة في التعريف، أو ما جاء في أمثال أخرى (شيطان ليطان)، إذ ليطان لا تنطوي على أيّ معنى إذن لماذا وردت في جملة المثل؟ سئل عنها أعرابي فأجاب: (شيء ننتد به كلامنا) أي نشده. ⁽³⁾ أي أنّ غرض هذا الاتّباع هو مراعاة الوزن و الايقاع ليسهل حفظ الكلام، لارتياح الأسماع له.

إنّ الاتّباع من حيث انطوائه على معنى أو عدمه، يؤول إلى الطبيعة العفوية للأمثال فمنها ما يحقق الغرض المعنوي و الايقاع الصوتي على غير قصد و منها ما يحقق الايقاع الصوتي دون انطوائه على معنى . و العفوية قد تجد القائل في حالات شعورية متباينة من غضب أو فرح أو ترح قيتلطف بكلام يأتي به على عواهنه، قد يصيب به معنى و قد يخطئه كالخبطة العشواء و لهذا فإنّ (الاتّباع رمز على حالة شعورية خاصة تتملك قائله: قد تكون إعجاباً و قد تكون غضباً في الدّعاء، فمهما اختلف الشعور فالإتّباع رمز له) ⁽⁴⁾

1- حسين نصار، دراسات لغوية، دار التراث العربي، بيروت 1989، ص:53.

2- زهر الأكم، ج 1، ص:207، 208.

3- حسين نصار، دراسات لغوية ص:55.

4- م.س، ص:65.

إنّ ما تمت الإشارة إليه تحت هذا العنوان من القراءة النحوية ما هو إلا غيض من فيض مما استنبطه اليوسي من قواعد نحوية من خلال جمل الأمثال، على قصرها و ايجاز لفظها، و قبل ذلك نود قبل الإجابة عن السؤال عما تكون قد أضافته قراءات اليوسي اللغوية للأمثال؟

نقول من الناحية النظرية ما قاله اليوسي نفسه عن إعجام الخط ، من أنّ أعجابه يمنع استعجابه و الشيء نفسه يقال عن القراءة أو الدراسة النحوية. فمعرفة وظيفة الكلمة في الجملة تشي بلا شك بمعنى الجملة كاملاً، ثم الفقرة، فالنص، و معرفة الترتيب معرفة للنظام الذي لولاه لما قامت للغة قائمة، و لما أصبح التواصل بين بني البشر ممكناً مع أنّ اللسان هو أهم ما يميز الإنسان جاء في نص القرآن: ﴿ و من آياته خلق السموات و الأرض و اختلاف ألسنتكم و ألوانكم إنّ في ذلك لآيت للعالمين ﴾ سورة الروم، الآية 22.

إنّ اللسان و هو في الحقيقة إنسان، لا يستقيم بدون معرفة قواعد اللغـة و ضوابطها و تصاريفها، و ما اعوجاج العقول إلّا من من اعوجاج الألسن، و من لم يعرف هذه الضوابط لحن في كلامه و أفسد أمره يقول الجاحظ: « ارتفع إلى زياد رجل و أخوه في ميراث فقال: إنّ أبونا مات ، و إنّ أخينا وثب على مال أبانا فأكله، فأما زياد فقال: الذي أضعت من لسائك أضرتّ عليك مما أضعت من مالك. و أما القاضي فـقال: فلا رحم الله أباك، و لا نتح عظم أخيك، قم في لعنة الله »⁽¹⁾ و بديهي أنّ حركات الإعراب التي يستهين بشأنها هؤلاء، تقوم عليها صحة المعنى و سلامة الفهم، و بدون ذلك يصبح الظالم مظلوماً و المظلوم ظالماً و الجاني بريئاً، و هلمّ جراً. و ما قيل عن اللغة العربية يقال عن اللغات الأخرى، و حتى و إن كانت الأمور لا تتعلق بالناحية النحوية، و لكن ما يتصل بها مثل علامات الوقف أو علامات الكتابة (إنّ في هذه العلامات سرّاً لا يعرفه إلا من أدرك أهمية المنهجية العلمية في الكتابة، التي يتم بوسطها الفهم و الإفهام ، و يعدّها البعض المنفذ الذي تتنفس منها الجمل في النص إذا كان هو بمثابة البيت)⁽²⁾.

1- الجاحظ، البيان و التبيين، تح موقّق شهاب، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998، ط1، ص: 146.

2- أمانة بلعلی، أسئلة المنهجية العلمية، دار الأمل للنشر و التوزيع، تيزي وزو 2005، ص: 122.

إنّ القراءة النحوية نوع من التفكيك و التركيب بما يلائم مستوى المتلقي لاستيعاب رسالة
الباث. و يمكن القول أنّ الأمثال كالمادة الخام صيرتها القراءة النحوية مادة مصنّعة قابلة
للإستهلاك ، و هي أيضا نوع من فك الشفرة في الرسالة المتبادلة بين المرسل و المرسل.

-القراءة البلاغية-

بالرغم مما وُصف به اليوسي من العلم الموسوعي، و ايلائه أهمية لكل العلوم و الفنون، و توظيفها في شرح معانيها و تبيان مواردها و مضاربها فإنّ حظ القراءة البلاغية في زهر الأكم قليل فما السرّ في هذه الندرة ؟ و هل يعود ذلك إلى شح المعلومات في هذا الفن لدى اليوسي و هو الذي نعتناه بالعالم الموسوعي ، أم لرأي خاص من أنّ البلاغة لا تخدم الأمثال؟ أم ثمة أسباب أخرى؟ ذلك ما نحاول التعرف عليه بعد قراءة قراءته البلاغية التي أوردتها على قلتها.

الإستعارة و الإستعارة اللغز:

من الأمثال التي أشار فيها اليوسي إلى الإستعارة، المثل:

جمع بين الأروى و النعام.

لا نعثر على الاستعارة في هذا المثل معزولة عن قصتها، و لكن في فقرة نثرية سنل فيها أعرابي عن صفة المطر، فأجاب: استقل سد مع انتشار الطل فشط واخزأل؛ ثم أكفهرت أرجاؤه... و هو كلام طويل، فقال اليوسي و هو يشرح ألفاظ هذه القطعة: « و هذه كلّها استعارات»⁽¹⁾ دون الإشارة إلى نوعها أو شرحها، أو التعليق عليها، و لعل في خلد أنه يخاطب متلقين ذوي أفق توقع عريض لا يحتاج معه إلى مزيد ايضاح، خصوصاً مع الإستعارة كثيرة الورد في الخطاب الأدبي.

لعلّ القارئ لا يجد مدلول الجزء الثاني من العنوان في أيّ من من معاجم اللغة أو مصنفات البلاغة، إذ لا توجد في المصطلحات البلاغية هذه التسمية حتّى ربما عند الذين يشهد لهم بطول الباع في هذا العلم كالزمخشري و عبد القاهر الجرجاني، و غيرهما، و لكن أثرنا ايرادها كما سماها اليوسي في قوله في شرح المثل: أبخر من الأسد.

«البخر بفتح الخاء المعجمة: نتن الفم وغيرها. يقال: بخر بالكسر، فهو أبخر وهي بخراء. والأسد معروف، وهو مشهور ببخر الفم وبه يضرب المثل فيه ومن ثم قال البلغاء: لو قيل: جاء أسد، وأريد رجل أبخر، كانت استعارة صحيحة، غير إنّها لا تكون مقبولة لعدم استعمالها: فإنّ الوجه فيها يشترط أن يكون بينا، ولا يكون بحيث يجعلها كاللغز»⁽²⁾

1-زهر الأكم، ج:2،ص:49.

2-زهر الأكم، ج:1،ص:177.

فاليوسي نبّه إلى احتمال أن تكون جملة (جاء أسد) استعارة، و أن لا تكون و حتى تكون ينبغي أن يكون الوجه بينا، و لم يوضح ماذا يريد بالوجه، و لكن يستتبط من قرائن الأحوال و من تعريفات الإستعارة أنه وجه الشبه ، و هي الصفة التي يشترك فيها هذا الرجل النتن الفم و الأسد المعروف بنتن الفم و بغير وضوح هذا الوجه يكون -حسب رأي اليوسي- كلام أقرب إلى الألغاز و الطلاسم منه إلى الاستعارة أو صورة بيانية واضحة. و لماذا تكون كذلك؟

إنّ اليوسي لا يجيبنا ، و لكننا نرى السبب في ذلك كون الأسد يشتهر بكثير من الصفات، و لكن الصفة الغالبة فيه هي الشجاعة، و ربما انصرف ذهن المتلقي إليها مباشرة فيقع في خطأ التأويل، لأنّ للتأويل حدوده كما يقول امبيرتو ايكو. و هذه الحال لا تكون اسعارة صحيحة إلا أن يكون هناك تفاهم مسبق بين المرسل و المتلقي، بأنّه متى ما جاء فلان و تُلْفِظَ بأنّ الأسد قد جاء فإنّ المقصود منه نتن فمه لا شجاعته و في هذه الحال تكون استعارتين مختلفتين يفسره كل حسب سياقه و أفق انتظاره، فالمرسل و المتلقي المتفقان المتغامزان على الرّجل الحاضر تكون الإسعارة عندهما: جاء الأسد= جاء الرّجل النتن الفم. أما الرّجل: خالي الذهن مما دُبر فالاستعارة عنده: جاء الأسد= جاء الرجل الشجاع. و إنّما وري الكلام تورية و مؤهّ تمويها خوفا من غضب المقصود بالمنقصة. و لهذا قالت العامة: « من يستطيع أن يقول للأسد أنت أبخر الفم»⁽¹⁾ إنّ التخاطب بالاستعارات التي هي كالرموز و الألغاز مما تزخر به كتب الأدب قديما و يكشف عن نهج في التواصل و التفاضل.

الازدواج أو المزوجة:

من الآليات النقدية البلاغية التي أشار إليها اليوسي ما يسمى بلاغيا بالازدواج أو المزوجة، و قد ذكره غير ما مرة في أثناء شرحه للأمثال.

و المزوجة: «من البديع و هي الإزدواج، و هو أن يكون المعنى في فعل الشرط و جوابه مترادجين، أي من نوع واحد قال البحثري:

إذا ما نهى الناهي فلجّ في الهوى أصاغت إلى الواشي فلجّ بها الهجر

عندما ينهى الشاعر على الحب يشتدّ حبه على عكسها يشتدّ هجرها، و الفعل (لجّ) موجود في الشرط، و جوابه، و المزوجة تخدم موسيقى البيت، و تضيف عليها تكرارا جميلا إذا صدرت من شاعر أصيل»⁽²⁾.

1- زهر الأكم، ج:1ص:177.

2- الشامل، ص:838.

أما في جواهر البلاغة فلم يدمج التعريفان، و لم يجعلهما شيئاً واحداً، حيث قال عن الأول: المزوجة أن يزواج المتكلم بين معنيين في الشرط و الجزاء، بأن يترتب على كل منهما معنى رتب على الآخر، كقول الشاعر:

إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها تذكرت القربى ففاضت دموعها

زواج بين الاحتراب (التحارب)، و تذكر القربى في الشرط و الجزاء بترتيب الفيض عليهما (1) أما الازدواج فعرفه بأنه تجانس اللفظين المتجاورين نحو: من جد وجد و من لج ولج (2) و من العينات التي أشار إليها اليوسي، المثال الوارد في المثل: حرّة تحت قرّة. فحرّ الرّجل: عطش، و القرّ: البرد. ثمّ يقول أنّ (فالحرّة) في المثل مكسورة للازدواج مع (قرّة) التي من حقها الكسرة أصلاً.

أما ما يمكن أن يضيفه هذا في المثل، فنظن أنّ دوره يقتصر على الجانب الإيقاعي و ليس أدل على ما ذهبنا إليه ما جاء في التعريفات من أنّ دوره موسيقي أكثر منه بلاغي و بالأخص اللفظي منه. أما فائدة الموسيقى بذاتها فإنها تسهل الحفظ لسلاسة اللفظ على اللسان و سهولتها على الأذان و رسوخها في الأذهان، بحسن نطقها و انسجام حروفها و عدم تنافرهما و قد ذهب عبد القاهر الجرجاني إلى أنّ تناسب الحروف مما يفصح اللفظ (3) ثمّ إنّ النطق بالكسرة أسهل من النطق بالضمّة.

الكناية:

تعدّ الكناية إحدى أهم المواضيع التي اهتمت بها البلاغة العربية، و ترد كثيراً في الأمثال، و قد أشرنا في بداية بحثنا إلى قول الميداني عن إبراهيم النظام عن جودة الكناية في المثل لكن يبدو أنّ اليوسي لا يشير إلا إلى ما هو صعب و شاذ و في الأمثال كنايات تكاد تنطق ، و يتطرق إليها و من جملة ما ذكره، فقوله:

خفة الظهر أحد اليسارين.

فقال: « جعلوا خفة الظهر كناية عن عدم أو قلة الحقوق اللازمة و النفقات الواجبة فإنّها للزومها كالشيء المحمول على الظهر يخف و يثقل. و لا فرق في أنّ الأحمال المحسوسة يحملها البدن المحسوس و الحقوق تحملها اللطيفة الروحانية من البدن وهي القلب و هذه أقل صبرا على الثقل

1- أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط6، بدون تاريخ.

2- م.ن، ص:326.

3- عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، تح: مصطفى شيخ مصطفى، و ميسر عقاد. مؤسسة الرسالة ناشرون، ط1، بيروت، 2004.

بيدين أي بالقوة، و ما صلة و زائدة: اسم رجل يريد بالقوة و الجلادة أورد زائدة إبله الماء لا بالعجز. و يجوز أن يريد بقوله بيدين أنه بكلتا يديه. يضرب في الحث على استعمال الجد. (1)

نلاحظ اتفاقا بين اليوسي و الميداني على المعنى العام، بشأن اليد، رمز و كناية عن البطش و القوة، و اختلافهما بأن أضاف الميداني كون (زائدة) اسم رجل أورد إبله الماء بالقوة. و لا ندري هل قصة الميداني حقيقية أم جاء بها لدعم فكرة أن المراد بالبيدين القوة لا الجارحتين، وإذا كانت بالإحتمال الثاني، فمعنى ذلك أن المثل من الأمثال الفرضية أو الرمزية التي نسجت قصتها نسجا لتوائم معنى المثل و تصحبه، كما قالوا عن المثل: (أكلت يوم أكل الثور الأبيض) (2) و مع هذا لا نجد للكناية ذكرا بالإسم عند الميداني، بل ايرادا للمعنى العام للمثل فقط.

التورية:

من المسائل البلاغية التي حظيت بعناية واضحة من اليوسي، التورية حيث أتى بشأنها بعدد من الأمثلة، و حتى القصص الطوال التي عدّ سردها أو سرد بعضها منه تورية فلماذا أولاها اليوسي كل هذا الاهتمام؟ سنحاول الإجابة عن هذا الاشكال بعد استعراض بعض النماذج منها. فما التورية؟

التورية: «من البديع المعنوي، و تدعى أيضا الإبهام، و هي أن يضع القائل في كلامه كلمة لها معنيان أحدهما: قريب ظاهر الكلام يدلّ عليه، و الآخر بعيد و هو الذي يقصده القائل» (3)

أما جواهر البلاغة فهو أقل تفصيلا بالرغم من تخصصه في المادة فالتورية من ورّيت تورية إذا سترته، وأظهرت غيره. أما اصطلاحا فهي أن يذكر المتكلم لفظا مفردا له معنيان أحدهما قريب ظاهر غير مراد، و الآخر بعيد خفيّ هو المراد بقرينة، و لكنه ورّى عنه بالمعنى القريب، فيتوهم السامع لأوّل وهلة أنه هو المراد و ليس كذلك، كقوله تعالى: ﴿الَّذِي يَتُوفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَ يَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ (4) أراد بقوله (جرحتم) معناه البعيد و هو ارتكاب الذنوب، ولأجل هذا سميت التورية إبهاما و تخبيلا» (5)

1- م.ن.

2- ينظر: التلقي و السياقات الثقافية، ص: 131.

3- الشامل، ص: 369.

4- سورة الأنعام، الآية: 60

5- جواهر البلاغة، ص: 287، 288

يدلنا اليوسي على أمثلة تطبيقية من الأمثال، أو مما يتمثل به من الأشعار. بعد أن يعرف التورية: « أن يذكر الشاعر لفظا له معنيان: قريب و بعيد. و يريد البعيد نحو قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾⁽¹⁾ فإن المراد أحد معني الاستواء و هو الاستيلاء قهرا و غلبة، و هو المعنى الأبعد لأنه مجاز. و تسمى التورية ايها ما. فإن كان المعنيان مستويين سمي ذلك توجيها»⁽²⁾

لم نعثر على مصطلح التوجيه لا في معجم الشامل ، و لا في جواهر البلاغة، فقد انفرد بذكره اليوسي هنا.

أما الأمثلة التي ساقها فهي:

يقول: تخلف بعض أصحابي عن مجلس الدرس في اليوم المسمى بالعجوز^(*) آخر يناير حبسه البرد، فكتبت إليه على سبيل المطيابة:

أعجزت عنا بللعجوز ولم يكن ... رجل لتمنعه عجوز عائده؟

وعدلت عن أكار فكري بكرة ... أتباع بكر بالعجوز الباردة؟

و فيه التورية (بالعائدة) من حيث إنه وصف للعجوز أي صارفة وعائقة وإنه معمول المنع بمعنى العطية والصلة، وفي العجوز أيضا بين اليوم والمرأة بقريضة ذكر الرجل⁽³⁾ (**)

ثم يضيف مبينا رأيه في التورية: « واعلم أن التورية والتوجيه أعلى فنون البديع وأجلها وأدقها وهو أحد معاريف البلغاء الذي يرفلون به في الحلل الرقائق، وينجون بفسحتها من المضائق»⁽⁴⁾

يبين اليوسي إذن أهمية التورية في الخطاب الأدبي، و ينعته بأنها أبهى الحلل

و هي عنوان بلاغة البلغاء و فطاحل الأدباء و برر ذلك بأنها ذات أغراض، لأنها تأتي

1-سورة طه، الآية: 05.

2-زهر الأكم، ج:2، ص:232.

3-م.ن.

4-م.ن.ص:233.

* هذا المثل يوجد أيضا في ثقافتنا الشعبية ، ففي آخر شهر يناير الذي يليه شهر يدعى(فورار) ، تفرح العترة بذهاب يناير لأنه يكاد يقتلها بقره، فيرد عليها يناير بأنه سيستعير يوما من شهر (فورار) لمزيد من التنكيل بمدة العترة التي تشفت بذهابه ، و انتهاء أيامه، أو هكذا يروى في الأساطير الشعبية.

** نشير أن اليوسي هنا لم يذكر الرجل باللفظ ، و لكن مفهوم من سياق ، و هو صاحبه الذي خاطبه قائلا:أعجزت

بالكلام تعريضا و تلميحا ، و هي بذلك تنجيهم بفسحتها و سعتها من مضايق بعض المواقف التي قد يقعون فيها.

لا ننكر هذا الفضل للتورية في عملية التواصل وما لها من جمال وما هنالك من غايات في ذات المرسل لا يدركها إلا أنها في وقتٍ من الأوقات أصبحت التورية مطية للتلاعب بين أدباء جفّت قرائحهم فأصبحوا يتبارون بالتورية و البديع و حشو الكلام دون طائل معنى وراءه و كان ذلك في العصور التي أطلق عليها مؤرخو الأدب عصر الضعف و الإنحطاط. و إن كان هذا الرأي لا يقدح في أساس التورية، و لكن يبقى الحكم في الاستعمال، فإن كانت عفوية مناسبة لمقتضى الحال فإنها مقبولة و إن كانت متكلفة غرضها التباري بها كالألغاز من غير طائل وراءها، فهي مرفوضة.

و أيّا يكن فإنّ اليوسي أورد عددا من القصص برّر بها حسن استعمال التوريات، نورد ثلاثا منها على طول في بعضها، لكننا قدرنا أنها حسنة فعلا و تستحق الذكر، مع كونها غير قابلة للاجتزاء فلجانا إلى الاقتباس.

يقول اليوسي متحدثا عن التوريات: « فمن أظرف ما وقع من ذلك ما روي عن خالد بن الوليد، رضي الله عنه، إنه لما نزل على الحيرة أتاه عبد المسيح الغساني، وهو ابن ثلاثمائة وخمسين سنة. فلما مثل بين يديه قال له: أنعم صباحا أيها الأمير! فقال له خالد: قد أغنى الله عن تحيتكم بسلام عليكم. ثم قال له خالد: من أين أقصى أترك أيها الشيخ؟ قال: من ظهر أبي. قال: من أين خرجت؟ قال من بطن أمي. قال: فعلام أنت؟ قال: على الأرض. قال: فيم أنت؟ قال: في ثيابي. قال: أتعقل؟ قال: أي والله، وأقيد. قال: ابن كم أنت؟ قال: ابن رجل وامرأة. قال: كم سنك؟ قال: اثنان وثلاثون بين ضرس و غضيض. قال: كم لك من السنين؟ قال: السنون كلها لله. قال: كم أتى عليك؟ قال: لو أتى علي شيء لقتلني. قال: كم عمرك؟ قال: لا يعلمه إلا الله. فقال خالد: ما رأيت كاليوم إنسانا أسأله عن شيء وهو ينحو في غيره. فقال: ما أجبتك إلا عن مسألتك. » (1).

أما القصة الثانية التي أوردتها اليوسي ، و تحوي تورية كذلك فهي: روي: « من أن رجلا وقف بباب المأمون ليشكو فلم يجد من يدخله فصاح: " أنا أحمد المصطفى النبي المبعوث! فأخذ وأدخل على المأمون وقيل له إنه تنبأ عن أمره فذكر شكواه فقال له: ما هذا الذي حكى عنك؟ قال: ما هو؟ قال: إنهم قالوا إنك تنبأت. قال: معاذ الله! إنما قلت: أنا أحمدُ

¹ 1- زهر الأكم، ج2، ص: 233.

المصطفى النبي المبعوث، وأنت يا أمير المؤمنين تحمده، وكذلك هؤلاء. فاستظرفه المأمون وأمر بلينصافه». (1)

وما روي عن أبي الفرج الجوزي «أنه كان في مجلسه في السنية والشيعة فسأله سائل، أي الناس كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أبو بكر أم علي؟ فتغافل، فقيل له: قل ما عندك! فقال: أحبهما إليه من كانت ابنته تحته. ويروى: أفضلهما من كانت ابنته تحته على أن السؤال كان على الأفضلية. ففهم السنية أبا بكر وفهم الشيعة عليا ورضي الفريقان. ومحاسن هذا النوع أكثر من أن تحصى». (2)

من خلال هذه النماذج ندرك عظم اعتقاد اليوسي في التورية و جدواها و قدرتها على تبليغ الرسائل حسب مشيئة المرسل، و إمكان استعمالها لقضاء الحاجات و الخروج بها من مضائق الظروف و الأزمات و يبدو أن اليوسي كان فعلا مقتنعا من خلال هذه النماذج التي اقترحها إذ عكس بها و بصورة عملية و نماذج واقعية ما كان مهدها نظريا من قبل.

بعد استعراض أهم القضايا البلاغية التي تعرض لها اليوسي نستطيع الإجابة عن الإشكالية التي طرحناها في مقدمة البحث في أن عدم عناية اليوسي بالجانب البلاغي لا يعود إلى قصور أو تقصير، و لكن لأمر أخرى نرى أن نجمها كذلك فيما يلي:

- طبيعة المثل نفسها التي تتسم بالقصر لا توفر الفرصة لانطلاق الخيال و ابتداع الصور و المحسنات، و هذا ما تشي به حتى التعريفات المختلفة من أن المثل تتوافر فيه التشبيهات و الكنايات و الاستعارات و لو وجدت فيها أشياء كثيرة لأتوا على ذكرها، مع أن اليوسي اجتهد في استخراج قضايا بلاغية أخرى اعتمادا على حذقه و ثقافته.

- إن بعض ما استخرجه اليوسي من الألوان البلاغية إنما لجأ فيه إلى الشعر و الحكاية، لأنهما أرحب من المثل.

- إن طبيعة المثل الغوية لا توفر كثيرا من الفرص لميلاد الصور الفنية و البلاغية، إذ الصورة فيه وليدة الاتفاق المحض لا الحالة التأملية أو التخيلية.

1- زهر الأكم، ج:2، ص: 233.

2- م.ن، ص: 234.

-إنّ العمدة في الدّراسة البلاغية تتحصر في التشبيه و الاستعارة و الكناية والتورية و قد أتى اليوسي على ذكرها كلّها.

مهما يكن فإنّ اليوسي بإشاراته البلاغية قد قرّب المثل للمتلقّي و جعل أثره فاعلا

و شرح بوساطته كثيرا من قصص الأمثال ولولا ذلك لبقيت جوانب منه غامضة لا تفك شفرتها، و لما عُلم من أين تُؤتى معانيها و هذا ما أشار إليه كثير من الباحثين المحدثين من أنّ البلاغة في حدّ ذاتها نوع من النّقد الأدبي بل من أهمّ مجسات النّقد قديما و حديثا. إلا أنّ هناك من يربط بين المثل و القدرة على بنائه، بحيث يتجنّب ما من شأنه أن يشوّه صورته و معالمة، كالتكلف في طلبه، من هنا ابن رشيق ، إلى أنّه: « لا يجب أن يكون استعارة و بديعا كشعر أبي تمام...و إنّما هرب الحذاق عن هذه الأشياء لما تدعو إليه من التّكلف لا سيّما إذا كان في الطّبع أيسر شيء من الضعف و التّخلف، و أشدّ ما تكلفه الشاعر التشبيه، لما يحتاج إليه من شاهد العقل و اقتضاء العيان»⁽¹⁾

1- أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، العمدة، ج:1، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط4، بيروت 1972، ص:285.

الفصل الثاني

معاني الأمثال

- 1- أضرار الأمثال.
- 2- الضد بالمجاز.
- 3- التفسير النفسي للمثل.
- 4- مصطلح القياس.
- 5- المعاني الأخلاقية للأمثال.
- 6- المعاني الإجتماعية.
- 7- الاحتمال في معاني الأمثال.
- 8- الأمثال الظاهرة و الأمثال الضامرة.

إنّ ما قدمه اليوسي من قراءات ليس سوى مقدمات و آليات لخدمة معاني الأمثال و هي روافد تصب كلّها في مجاري المعاني.

الأمثال العربية كسائر أمثال شعوب العالم لم توضع من أجل التلاعب بألفاظها، و لا لتمثّل الزيادة في كلامها، و لكن وُضعت من أجل غاية ، و هي تنطوي على قصرها على معانٍ جليلة تكاد تمس كلّ جوانب الحياة.

لا تزال الأمثال مؤثرة، جذابة ، يسعملها العالم كما يستعملها الأمي . « إنّها جواهر حفظت من التآلف باندساسها في ذاكرة الأجيال المتتالية و هي كنز ثقافي ذو قيمة كبيرة ففيها الملامح الخاصة بكل قوم. و ذلك لأنها وليدة لظروف معينة، و بالتالي وليدة التاريخ و الجغرافيا و المناخ و التربة» (1) .

و اليوسي في قراءاته النقدية للأمثال أورد العديد من المعاني التي تنطوي عليها منها ما ذكرها بالإسم و منها ما كنى عنها و منها ما استتجناه استنتاجا. و سنحاول في هذا الفصل أن نعرض لأهم ما جاء في قراءاته لمعاني الأمثال.

1- أضداد الأمثال

لا يكتفي اليوسي، من شدة حرصه، على تبليغ رسالته لمتلقيه بإيراد معاني الأمثال فحسب، بل يتعداه إلى ذكر أضدادها، انطلاقا من قاعدة (بضدها تعرف الأشياء) و هو بعد أن يقدم معنى المثل كما يلي: **إنّه نكد الحظيرة**. فذكر أنّ:

«النكد: الشدة والقلة؛ يقال: نكد عيش القوم إذا اشتد، ونكد ماء البئر إذا قل، وناقاة نكود قليلة الدر، ورجل نكد: عسير؛ والحظيرة والحظار بالظاء المشالة: ما يجعل للمشاة ويحاط بالشجر ونحوه لتأوي إليه ويمنعها من الحر والبرد، لأنها من الحظر وهو المنع. يضرب هذا المثل للرجل القليل الخير وللبخيل مع السعة، فكأن ضيق حظيرته كناية عن ضيق خيره وقلة فضله». ثم يضيف اليوسي قائلا: **ويقال في ضده: فلان رحب الفناء وسابغ الذيل، وغمر الرداء»** (2) ثمّ علّق قائلا: ونحو ذلك. و معنى نحو ذلك أنّ ما ذكره من الأضداد ليس كلّ ما لديه من الأضداد أو كلّ ما يوجد لهذا المثل من الأضداد، و لكن لعلّ ما ذكر يغني عما لم يذكر. إنّنا لا ندعي أنّ المثل لا يتضح إلا بضده، و لكن ايراد الضد يزيد المثل إيضاحا، و هو نوع من الموازنة بين الأمثال المتعارضة و هو من الناحية البلاغية نوع من المقابلة المعنوية.

1- ينظر قادة بوطارن، الأمثال الشعبية الجزائرية: ترجمة: عبد الرحمان حاج صالح. ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر. (د.ت) ص: 05.

2- زهر الأكم، ج: 1 ص: 126.

و ثمة من يرى أنّ وجود الأضداد في معاني الأمثال مدعاة إلى عدم الإلتفات إليها إذ ما أن تأمرك بشيء حتى تنهاك عنه، و كأنّ الأمثال تناقض نفسها، و يلغي بعضها بعضاً. و هذا غير صحيح، لماذا؟ لأننا لو أخذنا مثلاً المثل القائل: (ربّ عجلة تهبّ ريثاً) الذي يحث على عدم التسرع، و المثل: (لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد) الذي يحث على العزم والـحزم و السرعة لوجدنا أنّ ظاهر المثل يحمل تناقضاً، إلا أنّ الأمر على غير هذا المنطق، إذ بعد تحليل المثلين يتضح جلياً أنّ المقصود بالعجلة هو التسرع، و التسرع مذموم، و لكن غير المذموم هو السرعة التي هي خلاف التباطؤ. و ضف إلى ذلك أنّ طبيعة المثل عفوية تعبّر عن حالة آنية زمانية و حادثة مفردة، أي أنّها ترد لسبب خاص ثمّ تنتشر و تسيّر، و تصبح مثلاً سائراً و رمزاً. فالذي فوّت على نفسه فرصة، و لم يهتبلها و تقاعس، من حقه التنفيس عن نفسه و تعليلها و مواساتها بالمثل: (لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد)، بينما الذي يقود سيارته بسرعة جنونية حتى يصطدم بجدار أو شجرة، و يتأخر عن إدراك حاجته، نتيجة السرعة المفرطة بإمكانه أن يتعلل بالمثل: (ربّ عجلة تهبّ ريثاً) إن وجود المثل المضاد لا يعني إلغاء المثل الذي يضاده. و لو عدنا للمثلين المضروبين هنا اللذين قال عنهما اليوسي يقال في ضده: و هما: **إنّه لنكد الحظيرة، و فلان رحب الفناء** فأبى ضمير أن نقول للرجل البخيل المثل الأوّل واصفين به أمره، و نقول للرجل الكريم المثل الثاني واصفين به حاله. هل نلغي أحدهما؟ ثمّ إنّ رفض وجود هذا التضاد هو رفض للحياة بكاملها و القائمة على هذه الثنائية الضديّة، بين الحياة و الموت، و الخير و الشر، و المعنى و المعنى المضاد.

2- الضد بالمجاز

بالإضافة إلى الأمثال التي أشار اليوسي إلى أضعافها حقيقة أشار إلى تضاد من نوع خاص سماه الضد بالمجاز، و هو المثل: **رُبّ ساعٍ لقاعدٍ. الساعي: «الكاسب سعى يسعى سعياً والقاعد ضده مجازاً من القعود أي لزوم الأرض. ومعنى المثل أنّ المرء ربما سعى في جمع المال أو إدراك الحاجة حتى إذا تهيأ ذلك رزقه بعض من لم يسع فيه دون الساعي. فيضرب في اكتساب المرء ما لغيره من المال ونحوه»** (1)

فمن القراءة النقدية للمثل ملاحظة اليوسي أنّ في المثل تضاداً، إلا أنّه تضاد ليس

بمعارضته بمثل مضاد آخر كالمثل السابق، و لكن التضاد واقع في المثل نفسه، ليس بألفاظه كما جاءت، و لكن بعد تأويل المثل إلى معناه المجازي، فالساعي مجازاً هو الكاسب، و القاعد

مجازاً هو غير الكاسب. و لكن هل هنا في هذا المثل تضاد؟ أي نعم. و إذا توقفنا عند حدود المعنى المعجمي فإنّ الساعي هو (المسرّع في المشي) ⁽¹⁾، و القعود هو (الجلوس من قيام) ⁽²⁾ و ليس المشي سراعاً فالتضاد إنّما يبرز بعد انزياح الكلمة. و بالجملة فالتضاد حاصل في المثل بعد أن نعرف أنّ الساعي، هو الذي يسعى مثلاً إلى كسب الرزق أو قضاء وطر و القاعد من يتقاعس و يتقل إلى الأرض و لا يسعى لأيّ شيء.

هذا ما أكده اليوسي نفسه بهذا البيت الشعري، الذي خدم به معنى المثل:
وما الناس إلاّ جامع لمضيعٍ ... و ذو تعبٍ يسعى لآخر نائم!

3- التفسير النفسي للمثل

التفسير النفسي للمثل، أو هذا ما يمكن أن نؤلّ به بعض التفاسير التي ذهب إليها اليوسي، و هي على كل حال أبعد ما تكون عن الشرح المعجمي نظراً للمصطلحات التي وُظفت فيه، سواء ما تعلق منها بالتفسير المتني-إن صح هذا التعبير- أو التفسير النصي للأمثال وأياً كان فتلك المصطلحات لا نجد لها وجوداً إلا في القواميس الفلسفية المتخصصة كما أنّ تلك الكلمات المفسّرة بها تلك الأمثال، لا حضور لها عند غيره من الأدباء الذين عنوا بهذه الأمثال. و ما اختاره اليوسي من هذا الصنف كثير، سنكتفي بضرب أمثلة نستدل بها على سواها. و من أمثلة ذلك ما ورد في شرح المثل: **بر الكريم طبعٌ، وبر البخيل دفعٌ.** ⁽³⁾

حيث وقف اليوسي ملياً عند هذا المثل، و اجتهد في قراءته و أصبغ عليه أبعاداً قلماً

نعثر على ذلك عند الشراح الآخرين إذ يقول:

«البر: الاحسان والفضل. و فسّره أيضاً في المثل الذي يليه **أبرّ من هرة**» ⁽⁴⁾ أنّ البر يطلق على الخير و على الاتّساع في الإحسان كما مرّ و على الصلة و على الجنة و على الطاعة و على الصدق و على ضد العقوق وهو المراد هنا « (أي مثل الهرة).

و في القاموس هو: الخير، و الصلة، و ضد العقوق. ⁽⁵⁾ ثم يواصل اليوسي كلامه شـارحاً:
« و لا شك أنّ الكريم ينبعث منه البذل طيبة به نفسه، بل يجد في ذلك أعظم اللذات، و البخيل لا

1- القاموس الجديد، ص: 469.

2- المرجع نفسه، ص: 849.

3- زهر الأكم، ج: 1، ص: 180. (و المثل غاية في الفائدة).

4- م. ن، ص: 181.

5- القاموس الجديد، ص: 146.

يصدر عنه عطاء إلاّ عناء ومقاساة من نفسه حتى لا يكاد تسمح نفسه بالعطاء إلاّ عن رغبة أو رهبة كتوقي الأذى في النفس والمال والعرض»⁽¹⁾

و محلّ الشاهد من كلام اليوسي في قوله: (يجد في ذلك أعظم اللذات) و اللذة المقصودة هنا و المفهومة من سياق الكلام هي اللذة النفسية و الروحية و في المعجم الفلسفي ايضاح مفصّل لمصطلح اللذة « اللذة مقابلة للألم بديهيان أي من الكيفيات النفسانية الأولية، و لا يعرفان بل تذكر خواصهما و شروطهما، دفعا للإلتباس اللفظي. و قد قيل: إنّ اللذة إدراك الملائم من حيث أنّه ملائم كقطع الحلاوة عند حاسة الذوق، و النور عند البصر، و حضور المرجو عند القوة الوهمية، و الأمور الماضية عند القوة الحافظة تلتذ بتذكرها (تعريفات الجرجاني) و جملة القول، أنّ اللذة كيفية نفسانية أولية لا تعرف إلاّ بنسبتها إلى شروطها و أسبابها، كقولنا: اللذة تنشأ عن الفعل الموافق لطبيعة الكائن الحي، و اللذة، إما جسمانية تتولد من احساسات جسمانية متعلقة بمحسوس معيّن، و إما نفسانية تتولد من إدراك الكمال، فإنّ المدرك إذا اعتقد أنّ اتصافه بالعلم كمالا تلتذ بالحصول عليه، و الأولى أن تسمى اللذة الناشئة عن إدراك الكمال سرورا، أو حبورا، أو فرحا، أو بهجة و سعادة لأنّها تغمر جوانب النفس، و لا تختص بحاسة معينة»⁽²⁾، واضح من هذا التعريف أنّ اللذة، و اللذة النفسية على الخصوص مما تناولته العلوم النفسية و الفلسفية بالبحث و الدرس.

و لكن هل اليوسي أطلق هذا المصطلح من قبيل التجربة الشخصية؟ أم من التعلم و الدراسة؟ نرى أنّ كلا الأمرين محتملان، فاليوسي درس المنطق و الفلسفة و جرّب الحياة كذلك بخاصة أنّ هذا الكتاب ألفه في أواخر أيامه. و دليل آخر مما ذكره اليوسي من الجود يورث السعادة ما كشفت عنه دراسة حديثة من أنّ المال يجلب السعادة للإنسان إذا أنفقه مالكه على من هو بحاجة إليه.

من الأمثال التي نرى أيضا أنّها تتوافر فيها سمات البعد النفسي هذا المثل: «أخف من لا على اللسان». حيث يشرح اليوسي: «الخفة مرت ولا: حرف نفي وهي خفيفة على اللسان. فيضرب المثل بذلك في الخفة وهو يحتمل أن تكون الخفة من جهة اللفظ لقلته وهو ظاهر، أو من جهة المعنى لملائمة الإنكار للطبع غالبا وخفة التبرؤ والتوصل على النفس في أكثر الأمور أو منهما معا. ويقال أيضا: كلا ولا في التعبير عن السرعة والخفة. قال:

1- زهر الأكم، ج: 1، ص: 180.

2- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1978، ص: 282/2.

يكون نزول القوم فيها كلا ولا ... غشاشاً ولا يدنون رحلاً إلى رحل
غشاش أي على عجل»⁽¹⁾

إنه لا يقف عند المعنى اللفظي و المعجمي لكلمة (لا) ، بل تعدها إلى المعنى الباطني و النفسي لها ، و هو غلبة طبع الإنسان على الرِّفْض، و قول (لا) و (كلا) و الإِبْـاء و التَّأبِي، فبعض الناس يقول بها استتقلاً للخوض في التفاصيل و المتاعب التي تستتبعها (نعم) و (أجل)، إنها خفيفة على اللسان، و ترد الطالب على أعقابه بسرعة أكثر من نعم التي تستلزم كثيراً من التفاصيل هذا ما نلاحظه من تصرف أكثر الناس في المجتمع عندما يقصدهم متسول فيردوه بقولهم (الله ينوب) ، و هو كناية و رديفة لكلمة (لا) هذا ما يسرع إليه الإنسان بدلاً من تجشم الصعوبة ، و البحث عن شيء يغيث به الملهوف. و ليس مستبعداً أن يكون قريباً من هذا ما حدثنا عنه القرآن عن القوم الذين قالوا: ﴿وإذا أخذنا ميثاقكم و رفعنا فوقكم الطور خذوا ما أتيناكم بقوة و اسمعوا قالوا سمعنا و عصينا و أشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بئس ما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين﴾ سورة البقرة، الآية 93. و محل الشاهد هنا بطبيعة الحال في قوله تعالى على لسان هؤلاء الأقوام ﴿سمعنا و عصينا﴾ و العصيان مرادف الإِبْـاء و (لا). و لو كانت بـ (أطعنا) لكانت مرادفة (نعم). و هذا طبع معظم من تأمره نفسه الأمانة بالسوء فيطيعها، أما أصحاب النفوس المطمئنة السهلة الدمثة ، فهم ممن قال فيهم القائل: (لولا لا إله إلا الله) لكانت (لامه) (نعم).

من جملة الأمثال التي تستجيب لمضمون العنوان ما جاء في شرح المثل: بلغ السيل الزبى. حيث أفاض اليوسي في شرح هذا المثل الذي لا يزال سائراً و متردداً من أقدم الأزمان حتى أتى اليوسي على الاستشهاد بثلاثة أبيات لامرئ القيس في وصف قوة السيل:

كأن نرى رأس المجير غدوة ... من السيل والغناء فلكة مغزل

وألقي بصحراء الغبيط بعاهه ... نزول اليماني ذي العياب المخول

كأن أسودا فيها غرقى غدية ... بأرجائها القصوى أنابيش عنصل

و المجير: جبل، وذراه: أعالي و فلكة المغزل: التي يدور بها معرفة. يريد إنَّ السيل قد أحاط بهذا الجبل، فكأنه يدور فلذا شبهه بفلك المغزل فهو من التخيلات. والغرقى جمع غرق والأرجاء: النواحي، والقصوى: البعيدة والعنصل: البصل البري المعروف. والأنابيش جمـع

أنباش والأنباش جمع نبش وهو أصل المنبوش. يريد إنَّ هذا السيل لكثرتِه أغرق السيلع فصارت طافية فوق الماء كأنها أنبلش العنصل يقتلعها السيل». (1)

تمّ تثبيت هذا الشرح على طوله لتفهم الصورة المتخيلة في الأبيات. أما اللفظ المقصود من شرح اليوسي فهو قوله تعليقا على تشبيه امرئ القيس الجبل و السيول المحيطة به، حتى أشبه ذلك (فلكة المغزل) فهو: أنَّ هذا من (التخييلات) فالتخييل غير الخيال و هو محل وجود في المعاجم الفلسفية لا اللغوية و قد وجدنا مدلوله في هذا المعجم يتطابق مع ما ذهب إليه اليوسي تماما:

فـ(التَّخِيل):IMAGINATION: تخيّل الشيء تمثّل صورته كما في التخيّل التمثيلي (IMAGINATION REPRESENTATIVE). تقول تخيّلت الشيء فتخيّل لي ، فالتخيّل إذن قوة مصورة، أو قوة ممثلة، تريك صور الأشياء الغائبة فيخيّل لك أنّها حاضرة، و تسمى هذه القوة المصورة،و هي كما قال ابن سينا « تحفظ ما قبله الحس المشترك من الحواس الجزئية الخمس و تبقى فيه بعد غيبة المحسوسات » (النجاة ص:366) . وفي هذا المعنى كما ترى غموض و اشتباه لاختلاطه بمعنى الذاكرة و تداعي الأفكار.و الأولى تعريف هذا النوع من التخيّل بقولنا: "إنّه تأليف صور ذهنية تحاكي ظواهر الطبيعة و إن لم تعبر عن شيء حقيقي موجود». (2)

يتطابق هذا المقطع الأخير تماما مع ما ذهب إليه اليوسي، لأنَّ امرأ القيس ألف فعلا صورة ذهنية في مخيلته ،و حاكى بها صورة شاهدها في الطبيعة.و الحقيقة أنّ في أبياته صورتين لا صورة واحدة.الصورة الأولى تتمثّل في تشبيهه لرأس الجبل (المجيمر) و السيل محيط به بفلكة المغزل.و الصورة الثانية الأسود الغرقى المندسة أقدامها في السيل المشبه لنبات البصل المنغرس في الأرض. و بعد التأمّل في كلا الصورتين نستنتج أيضا أنّهما (كلا على حدى) تشكّان تشبيها تمثيلا لأنّ فيهما تشبيه صورة بصورة ، لا صفة بصفة. و لكن كيف أتى اليوسي بهذا المصطلح لو لم يكن على اطلاع على العلوم الفلسفية و المنطقية المتوافرة في عصره، مع أنّ التحليل النفسي للأمثال و الأقوال المأثورة لم يظهر إلا حديثا. (3) بعد الفطنة إلى أهميتها في تشكيل الرؤية الاجتماعية و الخبراتية.

1- زهر الأكم، ج:1 ص: 203.

2- المعجم الفلسفي ، جميل صليبا ج:1، ص: 261 ، 262.

3- ينظر التحليل النفسي للأقوال المأثورة لسمير عبدة. دار علاء الدين ، اط: 1 ، دمشق 1994.

4-مصطلح القياس

كان مصطلح (القياس) من جملة ما تناوله اليوسي إذ قال و هو بإزاء شرح المثل مذكية تقاس بالجداع:» المذكى من الخيل: المسن الذي جاوز القراح بعام، كما مر في الجيم. والجداع جمع جذيمة وهو الصغير السن، والقياس: اعتبار الشيء بالشيء وإحاقه به في أمر. وهذا المثل يضرب عند الخطأ في التشبيه و قياس الكبير بالصغير. واشتهر في هذا المعنى على ألسنة الناس قولهم: قياس البيض على البانجان».(1)

محل الشاهد من هذا المثل في قوله القياس: (اعتبار الشيء بالشيء وإحاقه به في أمر) وقد وجدنا لهذا المصطلح أثرا في المعجم الفلسفي، حيث جاء فيه: «القياس: SYLLOGISME: هو التقدير، يقال قاس الشيء إذا قدره، و يستعمل أيضا في التشبيه أي تشبيه الشيء بالشيء، يقال هذا قياس ذاك، إذا كان بينهما تشابه».(2) وهذا هو المراد بالذات في لغة المثل حيث شبه (أو قاس) المذكى بالجداع. إن مما تلفظ به اليوسي من كلام كان دقيقا ، و لم يكن اعتباطا.

قد يكون أفضل موضع جسّد فيه اليوسي مبادئ هذا العلم، ما جاء في المثل: **أثقل من حديث معاد.** حيث أطل فيه الشرح، و أتى بصدده بعدة قصص دعم بها تحليلاته و و جهات نظره و مما جاء في ذلك: «الثقل تقدم؛ والحديث: الخبر؛ والمعاد: الذي سمعته ثم أعيد عليك مرة أخرى فهو يتقل على السماع كثيرا لعدم الداعي إلى سماعه، مع الملل الحاصل للنفس من تكراره. والنفس للطافتها وروحانيتها أكثر من البدن تألما بالإذابة وأقل صبرا واحتمالا، فلا تكاد ترتاح إلا إلى ما فيه غذاؤها، من علوم تستحصلها، أو غرائب ولطائف تنفكه بها. فإذا عدمت ذلك غلبها الضجر، ونفرت غاية النفر؛ ومن ثم تستثقل الكلام المعاد وتمل منه ولو كان في نفسه بليغا عجبيا، إذ لم يبق لها حظ فيه. وكان عدم الملل في كتاب الله تعالى، مع معاودته على مرور الليالي والأيام، معجزة ظاهرة للعيان؛ ومن ثم قيل: كل مكرر مملول إلا القرآن .(3)

إن حديث اليوسي عن النفس و وصفه إيّاها (باللطفة) وكلامه عن أسباب ملل النفوس من الحديث المعاد، كل هذا ينم عن معرفة بأحوال النفس الإنسانية و بدراسة العلوم المتعلقة

1- زهر الأكم، ج: 3 ، ص: 11.

2- المعجم الفلسفي، جميل صليبا، ج: 1 ص: 207.

3- زهر الأكم، ج: 2/ص: 6.

بها. وإنه لم يتوقف عند حد هذا المعنى الحرفي للمثل، بل تعداه إلى ما يمكن أن يرد هنالك من استثناءات، فذكر أن القرآن مما يُعاد من الحديث، ومع ذلك هو غير مملول من النفس، وذلك أمر عجيب يخالف طبائع النفوس و ما يقرّره الواقع و الحقيقة، إلا أنه استثنى أيضا الملل من أحاديث العشاق و المحبين، الذين لا يشبع أيّ منهم حديث الآخر مهما يطل أو يعاد، و استشهد على ذلك بقول الشاعر عن حبيبته، و هو أمر واقع و مشاهد أيضا لا مرأ فيه:

و كنت إذا ما جئت سعدى أزورها ... أرى الأرض تطوى لي ويدنو بعيدها
من الخفرات البيض ود جـ ليسها ... إذا ما انقضت أحوثة لو تعيدها» (1)
و من تعريفات النفس الحسية في المعجم الفلسفي: AME SENSIBLE: « النفس الحسية هي الروح الحيواني، و « هو جسم لطيف مبعثه تجويف القلب الجسماني، و ينتشر بواسطة العروق الضوارب إلى سائر البدن» (تعريفات الجرجاني). (2) فقله: (جسم لطيف) هو ما ذكره اليوسي بعينه من لطافة النفس الإنسانية. و ليس ما أوردناه في هذا المبحث هو كل ما ذكره من الإشارات الدالة على بعض معارفه النفسية فثمة عيـنات و شواهد أخرى و هو ما يتميز به عن سواه ممن تصدى للأمثال بالشرح و التفسير، و بطبيعة الحال هذه الإشارات تفيد القارئ و تنير له أمورا عن نفسه كان لها جاهلا، و لحقائتها منكرأ.

5- المعاني الأخلاقية للأمثال

إنّ الأمثال في معانيها و ايحاءاتها تكاد تمس كلّ مناحي الحياة و من جملتها الجانب الأخلاقي في الإنسان و معاملات الناس بعضهم لبعض سواء أكانت هذه الأخلاق ايجابية يُتغنى بها و يُمتدح المُتصف بها أو كانت سلبية يُلام عليها صاحبها. فالمثل بعفويته صادق في أقواله لا ينافق و لا يُراعي سوى الصدق الفعلي، تعبيرا عن الموقف الذي أملى عليه ظرفا، لا بد له من ردة فعل عفوية صادقة، لا تأنق فني فيها و لا تجمل. و مما عرض له اليوسي في مدوّنته المثل: الإيناس قبل الإيباس.

جاء في شرحه: « الأئس ضد الوحشة؛ وأنست الرجل تأنيسا، وأنسته إناسا. و الإيباس عند الحلب أن يقال للناقة: بس، بس، وهو صوّيت للراعي يقول لها ذلك لتدر للحالب، فيقال: أبس

1- زهر الأكم، ج: 2، ص: 7.

2- المعجم الفلسفي، جميل صليبيّا ج: 2، ص: 447.

بالناقة يبس إيساسا فهو مُبَس. فيضرب في أن الإنسان ينبغي أن لا يكلف أمرا أو يسأل حاجة حتى يتقدم إليه بتأنيس مالي أو فعلي أو قولي». (1) و هذا مثل ذو معنى أخلاقي ظاهر يحث على التلطف و الإحسان عند الطلب فالعاقل من طلب مسألته بالتّي هي أحسن، و ليس بالتّي هي أحسن. و قد جاء في الأثر ما دخل الرفق شيئا إلا زانه، و ما نزع من شيء إلا شانه، فالرفق و التلطف معنى أخلاقي سام و قاعدة تربوية عظيمة.

و من الأمثال ذات المعنى الأخلاقي كذلك: **بالرفاء والبنين**.

«الرفاء بكسر الراء والمد على مثال كساء: الاتفاق والالتئام. ويستعمل عند تهنئة المتزوج والدعاء له بأن يرزق اجتماع الشمل ويرزق الأولاد». (2) و هذا من حسن الخلق و المعاملة بين الأحبة و الأقارب، و تبادل التّهاني و التّمنيات، و من باب الكلمة الطّيبة في المناسبات السعيدة مما يقوي عرى المجتمع و يجمع شمله، لأنّ من معاني (رفأ) أن تقول رفأت الثوب، و رفوته (يهمز، و لا يهمز) معناه لأمتّه و ضمنت بعضه لبعض. (3) و من صنف هذه الأمثال أيضا: **يبلغ الخضم بالقضم**.

فإنّ « بلوغ الشيء معروف. والخضم، بالخاء والضاد المعجمتين الأكل بجميع الهم، أو بأقصى الأضرار. وقيل خاص بالشيء الرطب كالثقلاء؛ يقال منه: خضمت الشيء بكسر الضاد وفتحها أخضمه كذلك بالكسر والفتح. والقضم، بالقاف والضاد المعجمة: الأكل بأطراف الأسنان يقال قضمت الشيء بكسر الضاد أقضمه. وفي الحديث أيترك يده في فيك تقضمها كما يقضم الفحل؟ و معنى المثل أنّ الخضم الذي هو الأكل الكثير يدرك وينال بسبب القضم الذي هو الأكـل الضعيف، فالشّبة قد تدرك بالأكل بأطراف الفم. والمقصود من ذلك أنّ الغاية البعيدة تدرك بالرفق» (4)

ثمّ إنّ اليوسي أورد العديد من أمثلة العامة دعّم بها معنى هذا المثل، وهي: و للعامة في نحو هذا المعنى أمثال كثيرة، منها قولهم: **المهمل يُبلِّغُ وقولهم: الراحة تنزل شيئا فشيئا**.

1- زهر الأكم، ج: 1 ص: 96.

2- م. ن، ص: 182/1.

3- م. ن.

4- م. ن، ص: 201.

وأصله في المريض. وقولهم: لا يجيء دفعة إلا الموت؛ وقولهم: قطرة إلى قطرة فيسيـل النهر؛ وقولهم: امش بالنعلين حتى تجد السُّباط، أي الخفين» (1) (*)

إنّ هذا المثل يصلح قاعدة حياتية و تربوية و أخلاقية و تهييبية لطبائع الإنسان الذي خلق هلوعا عجولا يستعجل الثمرات، و يريد أحيانا أن يقطفها قبل أن يغرستها و هو يضجر من الانتظار بينما سنن الحياة تقتضي التّؤدة و التّأني، و قد قيل: مسيرة الألف خطوة تبدأ بخطوة.

لا تقتصر المعاني الأخلاقية على المعاني الايجابية فحسب بل في الأمثال العربية ما يدل على المعاني السلبية، التي تنفر منها الطّباع السليمة ، فالعربي سجّل في أمثاله هذه المواقف لينفّر من الطّباع والأخلاق السلبية حتى يتخلّى عنها الناس و يقوم من اعوجاجها و من ذلك ما جاء في قولهم: قال بعض الأعراب: (في الأمثال الشعرية):

إذا كان الطباع طبع سوءٍ فليس بنافع فيها الأديب (2)

حكى الأصمعي قال: دخلت البادية فأتيت على عجوز، فإذا بين يديها جرو ذئب مقطع وشاة مقتولة. فقالت: أتدري ما هذا؟ قلت: لا قالت: جرو ذئب أخذناه وأدخلناه في بيتنا. فلما كبر قتل شاتنا، وقلت في ذلك شعراً. قلت: ما هو؟ فأنشدت:

بقرت شويهتي وفجعت قومي ... و أنت لشاتنا أبدا ربيب
غذيت بدرها وربيت فينا ... فمن أنباك إنَّ أباك ذيـب؟

إذا كان الطباع البيت...

و المعنى المستتبط من هذا المثل الشعري هو ما نستطيع تفسيره بقول آخر من أنّ (الطبع يغلب التّطبع). أما المعنى الأخلاقي السّلبّي فهو العقوق و نكران الجميل و قطع اليد التي امتدت بالإحسان بدلا من تقبيلها. و قريب أيضا من هذا قولهم: (خيرا تعمل شرا تلقى)، (اتق شرّ من أحسنت إليه). و الأمثال في هذا المعنى كثير.

لقد رصدنا في أثناء هذا البحث الأمثال ذات المعاني الأخلاقية الإيجابية منها و السلبية و هي أكبر من أن تتسع لها دفئا هذه المذكرة.

1- م. ن /ص: 201، 202.

* أشار المحققان أنّ اليوسي أورد أمثالا عامية ثمّ فصّحها، و هذا ما نلاحظه في هذا المثل بالذات.

2- زهر الأكم، ج: 1ص: 145.

إنّ اليوسي أولى عناية خاصة للدور الذي تلعبه الأمثال في التّوجيه التربوي، مثلما رأينا في بعض الأمثلة التي سقناها. وقد ذهب بعض الدّارسين إلى حدّ القول إنّ الأمثال ما وضعت سوى لتكون قاعدة من قواعد السلوك الانساني.

6- المعاني الإجتماعية

رصدنا في زهر الأكم أمثالا يدل محتواها على معاني اجتماعية لما تناولته من أحوال المجتمع و تسجيل مواقف إزاء كثير من القضايا، مع الإشارة إلى أنّ مضامينها قد تتداخل مع بعض المعاني الأخلاقية من نماذج ذلك: **بيدين ما أوردها زائدة.**

يقول اليوسي في شرحه «اليد تطلق على الجارحة وعلى القوة الناشئة عنها. ويثنى بالمعنى الثاني كما يثنى بالمعنى الأول الحقيقي أيضاً. قال تعالى: ﴿لما خلقت بيدي﴾، و تمامها: ﴿قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيديّ أستكبرت أم كنت من العالين﴾⁽¹⁾. وقال عروة بن حزام:

فقالوا شفاك الله والله مالنا ... بما حملت منك الضلوع يدان

و اليد في المثل إن كانت بالمعنى الحقيقي فهي كناية عن الجد والشدة والقوة لأن العامل عملاً بكتا يديه يكون عليه أقوى وأشد من الذي يعمله بيد واحدة؛ وإن كان بالمعنى الثاني فواضح وثبتت للمبالغة. والمثل يضرب للجلادة والقوة في العمل⁽²⁾. إنّ مضرب المثل يحث على العمل و الجد و النشاط و مثل هذ الضرب من المدلولات يمكن أن يصنّف ضمن المعاني الاجتماعية كالتعليم و التربية و الغنى و الفاقة.

ومن أمثلة ذلك : **بيض القطا يحضنه الأجدل.**

يعلق اليوسي: «فللقطا: الطير المعروف، واحده قطاة، الحزن: معروف، و أصله: جعل الشيء تحت الإبط. والأجدل هو الصقر، مشتق من الجدل وهو القوة، وغلبت عليه الصفة. وهذا المثل يضرب في الضعيف يستند إلى القوي ويأوي إليه⁽³⁾. و يمكن تفسيره بالنصرة و التكافل الاجتماعي و مؤازرة الأقوياء للضعفاء.

1- الآية من سورة ص، الآية رقم: 75.

2- زهر الأكم، ج: 1، ص: 211، 210.

3- المرجع نفسه، ص: 211.

إنّ هذا المثل إنّما استمد معناه من المعنى الأصلي لكلمة (الأجدل) ، و هو كون صفة الأجدل (الصقر) القوة، حيث أصبحت الصفة هي الموصوف و إشارة اليوسي إلى ذلك أفاد لغويا و معنويا. بحيث لو قال مثلا إنّ (الأجدل) هو الصقر، ثمّ مرّ على المثل مرّ الكرام، و لم يشر إلى أصل التسمية (*) لما عرفنا أنّ المراد من هذا المثل هو القوة و ربّما لم يصلح أصلا أن نضربه في هذا المقام، أي أن يفيد المعاني الاجتماعية. و حتى إن كان لا بدّ من الإشارة إلى أمر ما فيه، فإنّ القوة ليست الصفة الوحيدة التي يتصف بها الصقر، بل ما إن يذكر هذا الطائر الجارح حتّى تتبادر إلى الأذهان صفة أخرى غالبية فيه، و هي حدة البصر و لكن إشارة اليوسي إلى القوة أزلت كلّ غموض أو لبس، و أصبح المتلقي يستوعب أكثر مراده ، و رسالته و أمكن بذلك فهم معناه و تصنيفه.

و لو عدنا لمقارنة تلقي المثل عند اليوسي، و تلقيه عند الميداني، فإننا نجد فرقا شاسعا بين تحليل المؤلفين، حيث أنّ الميداني أورد هذا المثل بهذه الصيغة: (بيض قطا يحضنه أجدل). بانكار قطا و نصبه، ثم قال في شرحه: « الأجدل الصقر. و الحزن و الحضنة أي يحضن الطائر بيضه تحت جناحه. يضرب للشريف يؤوي إليه الوضيع». (1)

يلاحظ أنّه لا شرح لغوي مستفيض، مثل ما هو الأمر عند اليوسي، و لا إشارة إلى أصل التسمية و لا إلى بعض طبائع و صفات القطة (**). و لا استرعت انتباهه كلمة (قطا) و لماذا جاءت منونة، و ما إعرابها هذا من الناحية اللغوية و المعلومات المتعلقة بالطائر أما من حيث تبيانه لمضرب المثل فنرى أنّ الكلمات التي استعملها اليوسي للدلالة على مضرب المثل أكثر انسانية من الكلمات التي استعملها الميداني، إذ إنّ كلمة (الوضيع) فيها تصغير للشخص المنعوت، بخلاف (الضعيف) الذي يكون مقبولا و مثيرا للشفقة. ثمّ إنه، و حسب ما يستنتج من ظاهر المثل، لا يدل على أنّ المراد به هو (الوضيع) كما ذكر الميداني، خصوصا إذا تفحصنا كلمة (الحزن) التي نستوحي منها الحسد و الرعاية و التكافل الاجتماعي.

من الأمثال التي تصلح لهذا المعنى: **أحرص من نملة.**

* تحدثنا في مبحث سابق عن إشارة اليوسي إلى أصل التسمية، و في هذا المثل بالذات يؤدي ذكر أصل التسمية غاية كبيرة جدا في المعنى

و الدلالة. إذ بدونها لا نعرف سبب تسمية الصقر بالأجدل، و دور تلك المعرفة في تصنيف المثل و معرفة معناه.

1- مجمع الأمثال، ج:1 ص:150.

** أ أشار اليوسي إلى كون هذا الطائر لا يلد إلا ثلاث بيضات، و طبائع أخرى لم نذكرها تحنبا للإطالة و الإكثار.

و بيانه الحرص: الجشع يقال حرص يحرص كضرب يضرب وحرص يحرص كسمع يسمع حرصا. والنملة واحدة النمل وهو معروف، و حرصه على جمع القوت معروف . يقال إنه ليس في الحيوانات من يحتكر إلا الإنسان والعقق والنمل والفأر. والنمل عظيم الاحتياط في الاحتكار. يقال إنه إذا احتكر ما يخاف عليه أن ينبت قسمه نصفين وإذا خاف العفن على الحب أخرجه إلى ظاهر الأرض فنشره. وأكثر ما يفعل ذلك ليلا بضوء القمر» (1).

ففي هذا المثل تبدو لنا نباهة اليوسي و علمه ببعض طبائع الحيوانات بل ببعض الحشرات، فبمجرد ورود لفظ (النمل) في المثل طفق يسرد علينا أهم صفات و سلوكات هذا المخلوق العجيب، ليستنبط منه معنى اجتماعيا، ولكنه سلبي ، و هو الإحتكار المنهي عنه شرعا و قانونا، و نبه اليوسي حتى إلى تفنن النمل في الاحتفاظ على مُحْتَكِرِهِ ،و أن مُحْتَكِرِ إذا علم أن مُحْتَكِرِهِ سيطاله العفن و الفساد أخرجه و فرط فيه و باعه ولو بأبخس الأثمان و لكن النمل فطن للحيلة و تصرف بما يمكن أن يحافظ على سلامته و صلاحية مُحْتَكِرِهِ و إذا ما رجعنا إلى المجتمع الإنساني وجدنا من يعد غرف التبريد اسهاما في الاحتكار، إذا كان حفظ السلعة من أجل تقليلها في السوق لإغلاء ثمنها لا لحفظها من التلف.

إنّ اليوسي لم يذكر صراحة مضرب هذا المثل، لأنّ الأمثال التي ترد على صيغة (أفعل) تحمل معانيها في حروفها، ومن ثمة مضاربها.و قد أوضح اليوسي ذلك عندما قال: «و اعلم أنّ هذه الصيغة، و هي قولنا: أفعل من كذا، مستعملة في باب المثل عند إرادة منتهى التشبيه و أقصاه ما يُقال: (أعزّ من الأبلق العقوق)، و (أجود من حاتم) و (أعبي من باقل)، و نحو ذلك.و إنّما يتم ذلك ببلوغ المضرب غاية ذلك المعنى.لكن هذا الأمر إضافي موكل إلى نظر القائل و اعتباره و حكم خياله، و أيّما شيء استعظم درجته ساغ له أن يضرب به المثل.و لذا يصحّ له أن يضرب المثل بالحمام في الألفة (*) ، و إن كان غير الحمام أبلغ فيها و أحقّ،ولكنّه لم يلتفت إلى الغير و اسعظمها في الحمام إذ ليست الألفة من شأن الطير فهي مستغربة و الاستغراب زائد الاستعظام كما قالوا: (أجرأ من خاصي الأسد).و افهم مثل كلّ هذا في كل ما يرد في هذا الكتاب، و الله الموفّق للصواب» (2)

1-ينظر زهر الأكم،ج:2،ص:213.

*أضاف اليوسي هذا التوضيح بشأن الأمثال التي على صيغة(أفعل)،في أثناء شرحه للمثل "ألف من حمام مكة"ج:1،ص:80.

2- م. ن ، ج:1،ص:80.

إنّ في كتاب اليوسي أمثالا كثيرة دالة على الشؤون الاجتماعية، نذكر بعضها
اختصاراً، و منها:

المثل الدال على الحث على الأخذ بالأسباب من أجل كسب الرزق: **التمر في البئر على ظهر
الجمال**.⁽¹⁾، و يمكن أن ينسب أيضا هذا المثل إلى الشؤون الزراعية و الفلاحية و استصلاح
الأرض و العناية بها لأنّ معنى المثل أنّ من أراد أن تكون له غلة من تمر فعليه أن
يسقيه، و لو بحمل الماء إليه على ظهر الجمل، و هذا المثل قريب في معناه من المثل:
عند الصبح يحمد القوم السرى. الذي يحثّ على الجد للوصول إلى الهدف المنشود، و قريب
أيضا من قول الشاعر:

إذا أنت لم تزرع و أبصرت حاصدا ندمت على التقريط في زمن البذر
و يُروى: في زمن الزرع.

و من المعاني الاجتماعية كذلك ما يدل على كراهية العرب للخرق و حثهم على اتقان
العمل و هي في الوقت ذاته معاني تربوية لما فيها من توجيه و ارشاد من ذم المخطئ و مدح
المصيب:

1- **خرقاء ذات نيقة**. (والمعنى إنّها خرقاء، ومع ذلك تتأنق. فيضرب في الجاهل بالشيء يدعي
فيه المعرفة و يتخير في الإرادة).⁽²⁾

2- **الخرق شؤم**. (والمعنى أنّ من خرق في أمر فلا بد أن يعود عليه شؤمه)⁽³⁾

3- **خرقاء عيابة**. (هذا مثل للأحمق وذي العيوب، يعيب غيره وينسى عيوبه)⁽⁴⁾

4- **أخرق من حمامة** (توصف الحمامة بالخرق، لأنّها تضع بيضها حيث يمكن أن يفسد، أو
ينكسر)⁽⁵⁾.

5- **خرقاء وجدت صوفاً**. (والمعنى المثل أنّ المرأة غير الصانع إذا وجدت صوفا عاثت فيه
وودرته. يضرب مثلا للأحمق يجد مالا فيضيعه ويتلفه، أو لمن يخرق في كل ما وجده وتمكن
منه).⁽⁶⁾

1- زهر الأكم، ج: 1، ص: 325.

2- م. ن، ج: 2، ص: 187.

3- م. ن، ج: 2، ص: 188.

4- م. ن، ص: 189.

5- م. ن، ص: 189.

6- م. ن، ص: 189.

و في معاني الأمثال ما يدل على الاعتقاد و على السياسة و كلّ هذه المعاني تدل على أنّ المثل يعبر بواقعية، و عفوية عن كلّ ما يدور في المجتمع، أي أنّ المثل هو لسان حاله و المعبر عن تاريخه كلّه بالقصة المفسرة للمثل و كلّ ذلك بكثافة و ايجاز و اقتصاد لغوي كبير.

7- الاحتمال في معاني الأمثال

تتضارب معاني بعض الأمثال إلى حدّ التناقض أحيانا، فما السبب في هذا التضارب؟ في المعاني المسندة إلى المثل؟ من معنى مقارب إلى معنى مباعده، إلى آخر مناقض؟

أورد اليوسي عددا من الأمثال ، و قال عنها إنّها تحتل معاني متعدّدة، و هذا ما حدى بنا إلى اختيار هذا العنوان ففي معاني بعض الأمثال احتمالات ضربها لهذا الموقف أو ذاك، فهي ذات أوجه متعددة و متناقضة أحيانا، و لعل هذه الإشكالية تضاهي ما ذكره اليوسي نفسه من احتمال و تأقلم بعض الأمور لحالين مختلفتين ، بل متعارضتين، روى لذلك هذه القصة: « روي عن بشار بن برد من أنه خاط له رجل أعور يعرف بعمر و بردا فلم يعجبه فقال له: ما هذه الخياطة؟ قال له: خطته لك كذلك لتلبسه إنّ شئت على وجهه، وإنّ شئت من باطنه. فقال له بشار: وأنا قد قلت فيك شعرا، إنّ شئت جعلته مدحا وإنّ شئت جعلته هجوا، ثم أنشد:

خاط لي عمرو قباء ... لبت عينيه سواء
فأحاجي الناس طرا ... أمديح أم هجاء!

و يروى:

خاط لي عمرو قباء ... لبت عينيه سواء
فسل الناس جميعا ... أمديح أم هجاء! (1)

و أيّا يكن في قصة بشار، فإنّها تدل على براعته في صوغ الشعر، إذ جعله بالتورية مرنا يحتمل الوجهين: المدح و الذم.

و مما ورد من المعاني الاحتمالية المثل القائل: **إنّ البغاث بأرضنا يستن—سر.** « البغاث: طير أغبر و يطلق على شرار الطير كلها، وما لا يصيد منها. واستنسر: صار نسرا، والنسر: الطائر المعروف. وسمي نسرا لأنه ينسر اللحم. و معنى المثل

أنّ الضعيف من الناس إذا حلّ بأرضنا و وقع في جوارنا عزّ بنا و تقوى، كما أنّ البغاث الذي هو من ضعاف الطير إذا عاد نسرا تقوى، هذا إذن احتمال أول. و قيل معناه: أنّ الضعيف يستضعفنا، وتظهر قوّته علينا»⁽¹⁾ و هذا احتمال ثان.

و على هذا إذا أريد الافتخار قيل: إنّ البغاث بأرضنا لا يستنسر (بإضافة لام النافية).

إذن نلاحظ احتمالين اثنين لمعنى المثل، فهو غير متفق على معناه، و لهذا يمكن

استعمال هذا المثل من المرسل حسب حاجته و الموقف الذي هو بصده. و لكن لدينا ملاحظة فيما اقترح بشأن هذا المثل، و هو اضافة (لام النافية) إلى نص هذا المثل، لأنّ الدغماتية التي تتسم به تركيبية المثل تجعله غير قابل للتبديل و التحوير، حتّى و إن وردت هذه التركيبية خاطئة نحويا أو صرفيا، كالمثل: (مكره أخاك لا بطل) بدلا من (مكره أخوك لا بطل). و ما أشرنا إليه من عدم جواز التغيير في تركيبية المثل إلا أن تكون اللام التي قيل إنّها تضاف (اللام) من أجل إدراك معنى مخالف، تكون رواية ثانية في المثل، و في هذه الحال لا نتحدث عن إضافة، بل عن رواية ثانية للمثل. و تعدد الروايات في الأمثال موجود مثلما هو موجود في الشعر، و في العلوم و الفنون الأخرى. إنّ لا بدّ من الإشارة هنا أيضا أنّه من الأمانة العلمية تتبع تاريخ المثل و الحرص على عدم تحريفه و الإدعاء فيه بواسطة كثرة الاستعمال. بمعنى أنّ نضيف اليوم (هذه اللام)، لغاية تعبيرية و معنوية في المثل و عندما يكثر استعماله و تحفظها ذاكرة التاريخ نقول عنها إنّها رواية ثانية في المثل. و لكن لتبقى الأصالة أصالة، و الإضافة إضافة.

و بعد تصفحنا لكتاب الميداني وجدنا أنّ كلّ ما قاله عن هذا المثل هو: « يضرب للضعيف يصير قويا، و الدليل يعزّ بعد الدلّ»⁽²⁾، و حتى أبي هلال العسكري في كتابه (جمهرة الأمثال) فإنّ كلّ ما قاله بشأن معنى هذا المثل هو النص التالي: « يضرب مثلا للعزيز يعز به الدليل»⁽³⁾ و هذا ما يدل على انفراد اليوسي بمثل هذه التحليلات و الآراء النقدية التي لم يرق إليها أحد من شراح الأمثال على الأقل إلى عصر اليوسي. و لكن لماذا يختلف هؤلاء في قراءاتهم للأمثال، بالرغم من كون كل منهم جامعا، و قارئاً، و شارحا للأمثال؟ يبدو أنّ لذلك

1- م. ن، ص: 102.

2- مجمع الأمثال، ج: 1، ص: 18.

3- أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال، ط2، دار الفكر، بيروت 1988.

أسباب و احتمالات كثيرة من جملتها أنّ اليوسي كان متأخرا زمنا عن هؤلاء بعدة قرون، ما مكنه من الإطلاع على علوم لم تكن متوافرة في زمن الميداني الذي عاش في القرن السادس الهجري بينما عاش اليوسي في القرن الحادي عشر منه أي بفارق خمسة قرون. و من الاحتمالات كذلك، و هي البادية بجلاء أنّ هؤلاء الشراح لا يراعون الجوانب اللغوية و النحوية و الصرفية في الأمثال إلا فيما ندر، أما الجانب العروضي و الإيقاعي فلا نجد له أثرا (على ما نذكر) لدى الميداني، عكس اليوسي الذي أشار إلى أمثال كثيرة ذات الإيقاع العروضي إذ تقع أشطرا لأبيات ، أو مجزوءات لبحور عروضية.

و من المحتمل أن يكون هؤلاء ينظرون نظرة استصغار لهذه الأمثال من هذه النواحي، بل تكفي الإشارة إلى إلى مواردها و مضاربهها ، التي وُجدت لها أصلا، مع الإشارة بين الفسنة و الأخرى إلى ما غمض جدا من لفظه و إذا اكتفينا بهذا القدر فإنّ هناك قصورا، و تقصيرا كبيرين بشأن المثل الذي يتقصد على قصر جملة كلّ مناحي حياة الإنسان حتّى أدق تفاصيلها فهو كما قال ابن المقفع: « أوسع لشعوب الحديث»⁽¹⁾ . كما نفترض أنّ الميداني و آخرين يهتمهم أن يجمعوا أكبر قدر ممكن من الأمثال، فكانت بذلك دراستهم للأمثال دراسة احصائية لا قرآنية همهم كان الجمع ، لا الشرح و الإفهام. أما اليوسي فإنّه يريد بشرحه للأمثال و قراءته إياها الإمتاع و الانتفاع و توظيف المثل و ما صاحبه لغايات تنقيفية و تربوية، مستعملا في سبيل ذلك كلّ ما أوتيّه من علم.

من الأمثال التي يستجيب محتواها لهذا العنوان، ما شرح به اليوسي المثل:

إذا لم تستح فاصنع ما شئت. إذ قال فيه: « مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستحي فاصنع ما شئت. وفسر بمعنيين: أحدهما ظاهر، وهو المشهور: إذا لم تستح من العيب ولم تخش عارا ولا لوما مما تفعل، فافعل ما تحدثك به نفسك، حسنا أم لا. ولفظه أمر، ومعناها الخبر على وجه التوبيخ والتهديد، كأنه قيل: إذا لم يكن فيك حياء، فأنت صانع ما شئت من خير وشر. وفيه إشعار بأن الرادع للإنسان عن السوء هو الحياء؛ فإذا انخلع عنه كان كالمأمور بارتكاب كل محذور، وتعاطي كل قبيح وسيئة، كما قال الحماسي:

إذا لم تخش عاقبة الليالي ... و لم تستح فاصنع ما تشاء

فلا والله ما في العيش خير ... و لا الدنيا إذا ذهب الحياء

1- أنظر مجمع الأمثال، ج: 1 ص: 14.

و قال أبو دلف العجلي:

إذا لم تصن عرضاً ولم تخش خالفاً... و تستحي مخلوقاً فما شئت فاصنع

و قد أكثر الشعراء من هذا النحو.

ثانيهما:(الاحتمال الثاني): أن يحمل الأمر على بابه، أي إذا كنت في فعلك آمناً أن تستحي لجريك على السنن وليس من الأفعال التي يستحي منها، فافعل؛ وإلا فلا. وهذا قانون كلي وهو مثل ما في الحكمة: إياك وما يُعتذر منه» (1).

يلاحظ حسب قراءة اليوسي لهذا المثل أنه يحتمل تأويلين اثنين، وضّحهما.

و من النماذج التي رأى فيها الاحتمال و التأويل كذلك، و التي أشار فيها صراحة إلى هذه الخاصية، هذا المثل الذي نضطر إلى ذكره بنصه الكامل ليوضع المتلقي في السياق الحقيقي الذي من دونه لا يفهم الخطاب، و لا يفك شفرة الرسالة الكامنة فيه: محسنة فهيلي!

«الإحسان في الفعل ونحوه ضد الإساءة؛ و الهيل التفريغ و الصب. يقال: هال عليه التراب يهيله هيلاً و أهاله إهالة إذا صبه. و كل شيء صبه من غير كيل فقد هاله. قيل: و أصل المثل أن الهائلة بنت منقذ من بني عمرو بن سعد بن زيد مناة أم جساس بن مرة وهي أخت البسوس بنت منقذ التي كانت الحرب عليها بين وائل أربعين سنة ورد عليها ضيف ومعه جراب فيه دقيق. فقامت الهائلة وأخذت وعاء عندها كان فيه دقيق لتأخذ من وعاء الضيف دقيقاً. فجاء الضيف فلما بصرت به جعلت تأخذ من وعائها فتهيل في وعاء الضيف. فقال: ما تصنعين؟ فقالت: أهيل من هذا في هذا. فقال: محسنة فهيلي! فسميت الهائلة بذلك وذهب قوله مثلاً يضرب في استقامة الأمر قاله أبو عبيد. وقال غيره: يضرب للرجل يسيء في فعل فعله فيؤمر بذلك على سبيل الهزاء به وهذا أظهر و أنسب بالأصل المذكور. نعم! يمكن أن ينقل إلى الجد حتى يقال للرجل يحسن حقيقة على وجه الاستزادة من فعله» (2) هذا المثل ما دام يمكن ضربه للهزاء و الجد معا

فذاك خاضع للاحتمال و للتأويل و لقاعدة لكل مقام مقال و يمكن أن يختلف معنى المثل

باختلاف السياق و الموقف الذي يُضرب فيه، فإن رِيءَ موقف هزاء فقيل فيه المثل فهو

للـهـزء و التهكم من المتصرف و ربّما عدّ ذلك تعريضاً و كناية، و إن رِيءَ سياق فيه جدّ فيكون للجدّ و استحاثة المتصرف على الزيادة من احسانه، و فضله.

1- زهر الأكم، ج:1، ص:75.

2- زهر الأكم، ج:2، ص:124.

لو قارنا قراءة اليوسي بقراءة أبي هلال العسكري لهذا المثل، فماذا نستنتج؟ نورد رواية أبي هلال كاملة، و هي: «أما قولهم محسنة فهيلي يضرب مثلا للرجل يعمل عملا يكون فيه مصيبا يقول دمٌ عليه ولا تدعه وأصله أن رجلا نزل بامرأة ومعه جراب دقيق فاشتغل عنها فجعلت تهيل من جرابه إلى جرابها فنظر إليها فأخذت ترد من جرابها إلى جرابه فقال ما تصنعين فقالت أهيل فيه قال محسنة فهيلي وقيل هي امرأة من بنى سعدبن تميم يقال لها هيلة».(1)

هذا كل ما أورده أبو هلال العسكري عن هذا المثل، فلا شرح مستفيض و لا تأويل للمثل و لا رؤية لوجهين لمضربه، بل كلمات مقتضبات تعد مضربا للمثل. نستطيع التجرؤ بالقول أن أبا هلال قد أخطأ باعطاء الوجه الواحد لهذا المثل، لأن قصة المرأة التي استغفلت الضيف و بدأت تختلس من متاع ضيفها فسلوكها سلبي، و ليس مدعاة للإقنداء به. إن معنى هذا المثل و مضربه لا يستقيمان بغير الوجهين اللذين ذكرهما اليوسي فهما يخرجانه من ضيق اللفظ إلى سعة المعنى و سعة المعنى لا يملئها غير السياق و الموقف الذي تقع فيه الحادثة. إن خلفية هذا المثل لا تتضح إلا إذا بيننا فيه الرأيين المختلفين فيه ليكون المتلقي على بينة من أمره، و يكون الخيار بيده.

مما رأى اليوسي من الأمثال مستحقة التأويل، و إن كان يعزو ذلك إلى ما اصطاح عليه بـ (التّوهم)، ما جاء في المثل: أحر من القرع.

الحرارة تقدمت و القرع بفتححتين بثر أبيض يخرج من أعناق الفصلاان وقوائمها ودواؤه الملح و حباب ألبان الإبل (*). فإذا لم يجدوا ملحا ننفقوا أوبارها و نضحوا جلودها بالماء ومنه المثل. قال في الصحاح: وربما قالوا أحر من القرع بالتسكين يعنون به قرع الميسم وهو المكواة. قال:

كأن على كبدي قرعة ... حذارا من البين ما تبرد

قال: و العامة تريد به هذا القرع الذي يؤكل. انتهى.

قلت: و إنما توهموا المأكول لأنه تشتد حرارته إذا طبخ تطول و لا يبرد إلا بعد زمن حتى قالوا في زعاماتهم و أمثالهم: قال الذئب: لا آمنك يا قرع ولو كنت في الماء».(2)

1-المصدر السابق (من جمهرة الأمثال) ص:430.

*تلاحظ أن اليوسي يتقمص حتى دور البيطري فيبين لنا دواء هذا الداء.

2- زهر الأكم، ج:2، ص:112.

إنّ اليوسي امتد به التأويل إلى قول العامة، فتقافته الشاملة لم تتوقّف به عند المستوى اللّغوي و لكنه استعان بثقافة العامة ، و نسب ذلك إلى توهمها أشياء و هو بذلك يبدي نوعاً من التّصل من رواية العامة في تفسير هذا المثل و تأويله، إذ رأى أنّ العامة أخطأت في تأويلها نتيجة الصفة المشتركة بينهما، و هي الحرارة بين ما يعالج به الفصلان من الإبل و حرارة القرعة التي تؤكل، و التي من صفاتها الاحتفاظ بالحرارة لمدة معينة و التوهم أمر قائم في مخيلة الإنسان.

و أورد اليوسي في القضايا النقدية الأخرى عدداً من الأمثال ذات الاحتمالات المتعددة و إمكانات التأويل لا سبيل إلى سردها جمعاء، و منها هذان المثلان:

- (**الجمل من جوفه يجتو**)⁽¹⁾ له مؤول ايجابي يضرب لمن يأكل من كسبه، و مؤول سلبي لمن يبتلع بشيء ثم يعود عليه بالضرر.

- (**أجود من لافظة**)⁽²⁾

مردّ اختلاف التأويل في هذا المثل، اشتراك كثير من الكائنات في اسم الفاعل "لافظة"، ومنها كما ذكر اليوسي: قيل: البحر- قيل الرحي- قيل العنز- قيل الحمامة- قيل الديك.

8- الأمثال الظاهرة و الأمثال الضامرة

مما أنتجته قراءات اليوسي للأمثال ما أسماه بالأمثال الظاهرة، و أخرى قال عنها لم أقف لها على معنى فسميائها بالضامرة لضمور معانيها و عدم وضوحها. فما المثل الظاهر؟ و ما و المثل الضامر؟ و هل الظهور و الضمور يختصان باللفظ أم بالمعنى أم بهما معاً؟ ذلك ما سنحاول معرفته من خلال هذه الأمثلة:

المثل: إذا لم تغلب فاخلب. «الخلافة: الخداع، و المثل ظاهر المعنى». (3)

وكذا: أحشك وتروثني!

«الحشيش: ما يبس من الكلاً؛ وحششته أنا: قطعته؛ وحششت الفرس: ألقيت إليه الحشيش و الروث معروف. يقال: راثت الدابة تروث روثاً. وهذا المثل يضرب لمن أحسنت إليه فأساء»

1- زهر الأكم، ج: 2، ص: 51.

2- المرجع نفسه، ص: 52.

3- المرجع نفسه، ص: 51.

إليك. فإنه قد صار بمنزلة الفرس إذا ألقيت إليه الحشيش فطخك بروثه. وهذا ظاهر». (1)
أي ظاهر المعنى.

و منها: إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً.

قال عنه: «و المعنى إن كنت مثل الريح في الشدة والقوة، فقد لاقيت من هو مثل الإعصار الذي هو أشد الريح وأقواها. يضرب للرجل يكون صلباً جلدًا فيصادف من هو أقوى منه وأشد وهو ظاهر». (2)

و كذا: إن ذهب عير فعير في الرهط. «الذهاب معروف. والعير بفتح العين المهملة: الحمار وعير القوم: سيدهم، وهو المقصود هنا. والمعنى ظاهر». (3)

هذه إذن بعض النماذج التي نعتها اليوسي بالأمثال الظاهرة وبصريح اللفظ و مع هذا لا ندري لماذا سمى المثل الأخير مثلاً بالمعنى الظاهر؟ و نحن لا ندري سلفاً أنّ المقصود (بالعير) هنا سيد القوم، إذ بدون كشف مدلول (العير) يظن المتلقي أنّ المقصود به هو ظاهر لفظه، و هو الحمار، و الحقيقة أنّ المثل لا يكون ظاهراً إلا بعد إزالة الغموض عن بعض ألفاظه و من هنا يمكن القول إنّ المقصود بالظهور بصفة خاصة هو ظهور معناه بعد إزالة الغموض عن بعض لفظه، و في بعض الأحيان إلا بعد معرفة السياق الذي ورد فيه ثم لا ندري لماذا أيضاً لم يشرح كلمة (الرهط)، و أنّ المقصود بها (القوم). لعل اليوسي يتصور أنه بإزاء مخاطبة متلقين ذوي أفق توقع واسع، لا يحتاج معهم إلى شرح كل شيء أو بمعنى آخر أنه يخاطب متلقين من الخاصة، و ليسوا من العامة.

من تلك الأمثال كذلك: إن كنت ذا طب فطب لعينيك.

«الطب مثناة الطاء: علاج الجسم. والطب أيضاً: الرفق والسحر. ولفظ طب في المثل كذلك مثلث الطاء في الموضوعين^(*) والمعنى ظاهر. وفي نحوه قيل:

يا أيها الرجل المعلم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التعليم» (4)

و مثل هذا كثير في كتاب اليوسي، و بعد استعراض بعضها يمكن القول إنّ الظهور يكون لعدة أسباب أو لهما أنّ المقصود بالظهور أنّ معاني هذه الأمثال لا تحتاج إلى تأويل، و لا

1- المرجع نفسه، ص: 124.

2- ازهر الأكم، ج: 1، ص: 99 و 100.

3- م. ن، ص: 96/1.

* الذي يقصده اليوسي بالموضوعين هما: طب، و فطب.

4- م. ن، ص: 100.

تطرح بشأنها الاحتمالات التي رأيناها في الأمثلة السابقة، و قد تكون أيضا غير قابلة للتأويل، أي وحيدة الاتجاه في المعنى. و لكن مع ذلك هناك سؤال آخر متولد من رحم هذه الإجابات لماذا هذه الأمثال ظاهرة المعنى؟ وماذا يميزها من سواها؟ نظن السبب يعود غالبا في ظهور ألفاظها و شيوعتها، فهي سلسلة النطق حسنة النبرة و الإيقاع و مؤنسة، و ظاهرة أيضا لكثرة سيرانها، و تداولها بين الناس و لوك الألسن لها حتى أصبحت مشهورة، و ظهر معناها و برز وسمع بها القصي و الدني، و أصبحت قريبة المأخذ، و تستجيب بسرعة لأفق انتظار المتلقي الذي يجد في سجن ذاكرته نظائر لها (معنى أو لفظا) فيقع بذلك التوافق، و يعرف و بسرعة على معنى المثل بالمثل نفسه فالمثل يخدم مثلا آخر أحيانا.

أما الأمثال التي اصطلحنا عليها بالأمثال الضامرة فقد أورد اليوسي أيضا عددا منها، مثل: زعموا مطية الكذب.

«الزعم: الظن، يقال: زعم كذا وكذا واقعا، يزعمه. قال: زعمتني شيئا وليس بشيخ . وقال كثير:

وقد زعمت إنني تغيرت بعدها ... و من ذا الذي يا عز لا يتغير؟

حيث أنّ اليوسي، و بعد شرح مطول لهذا المثل يقول: قال الجلال السيوطي في

كتابه: قولهم زعموا مطية الكذب لم أقف عليه شيء من كتب الأمثال». (1)

و كذا المثل: سكت ألفا، و نطق خلفا.

«السكوت معروف؛ والألف عدد معروف؛ والنطق خلاف السكوت؛ والخلف نقيض القدام. والخلف أيضا الرديء من الكلام ومنه المثل. ومعناه: سكت عن ألف كلمة صواب ثم نطق بخطأ. وهكذا فسروه. وحكوا أنّ أعرابيا جلس مع قوم، فحبق حبة فتشور، فأشار بإبهامه إلى إسته وقال: إنها خلف نطقت خلفا! وهذا صحيح في لفظ الخلف في المثل. وأما في لفظ الألف، فالذي يظهر منه لا. والبديهة أنّ المراد به ألف سنة أو نحو ذلك من الأزمان، ويكون المراد الإخبار عن إطالة السكوت، لا حقيقة الألف و كأنه قيل: إنه أطل السكوت ثم لمّا تكلم لم ينطق إلا بالرديء من الكلام» (2)

و كذا:

- تسألني برامتين سلجماً

1- زهر الأكم، ج: 3، ص: 138.

2- م. ن، ص: 171.

«السؤال تقدم ورامة اسم موضع. قال زهير:

لمن طلل برامته لا يريم؟ ... عفا وخلا له حقبٌ قديم!

وثنوه بهذا الموضع اتساعاً (**).

يعترف اليوسي أنه لم يجد تفسيراً لهذا المثل، و لكن يعلق عليه فقط: « وكأنه شطر رجز والظاهر أن المراد بالسلمج فيه، النبات أو البئر وإنه استبعداً لسؤال ذلك وطلبه في هذا المكان الذي هو رامة لعدمه فيه. فيكون على معنى المثل الآتي: تسألني أبا الوليد جملاً يمشي رويدا ويكون أولاً. في طلب ما لا يكون. ومثله قول العامة: في دار البقر تصيب التبن». (1)

تلاحظ هنا إشارات اليوسي إلى الغموض الواقع في معاني هذه الأبيات، و بعدة عبارات. فمرة يقول: (زعموا مطية الكذب لم أقف عليه شيء من كتب الأمثال) (2). و أحيانا يقول: (وهكذا فسروه) في إشارة منه أنه لا يتبنى هذا التفسير و يترك مسافة بينهم و يحترز و يتحوط من الخطأ، و كأن لسان حاله يقول: (و العهدة على الراوي). و أحيانا أخرى يقول: (هذا المثل لم أقف له بعد على تفسير). فهذه الأمثال جميعها، و بالرغم من اجتهاده في شرحها و تفسيرها أو تأويلها، فضل أن يكون أميناً و يقول إنه غير مطمئن إلى هذا الشرح أو ذلك، و استشهد على ذلك بكتاب السيوطي تدعيماً لرأيه. و نرى أن سبب الغموض الواقع في هذه الأبيات مردّه إلى غياب القصة التفسيرية للمثل التي يمكن كذلك أن نفسرها بالسياق، فلو حضرت هذه القصة لانتفى الغموض وأصبح الضامر ظاهراً، و الغموض وضوحاً.

إنّ اليوسي استطاع فعلاً أن ينشر ما طواه ابن المقفع في قوله عن المثل: (أوسع

لشعوب الحديث)، حيث بيّن أنّ الأمثال تتسع فعلاً لشتى معاني و مناحي حياة الإنسان، بما تنطوي عليها من سؤال و بحث و مقارنة و رؤية و قراءة.

** يقول اليوسي بشأن التثنية: " و هذه التثنية هكذا شائعة في أسماء المواضع عند العرب (أي حتى و إن لم تكم التثنية لوجود اثنين) فقد تستعمل التثنية لأغراض أخرى بلاغية أو غير بلاغية. و قد استعملت في هذا الموضع للاتساع. و قد طرح هذا الاشكال الإمام الزوزني في شرح معلقة امرئ القيس في قوله: قفا نيك... ينظر الملاحظات السبع ص: 10.

1- زهر الأكم، ص: 156/3.

2- ن.م

الفصل الثالث

علاقة المثل بالأجناس الأدبية

- 1- خدمة الشعر بالمعاني المعجمية للمثل.
- 2- خدمة المثل بالشعر.
- 3- خدمة الشعر بالمثل.
- 4- خدمة المثل بالانثر الفني.
- 5- خدمة المثل بالقصة و السيرة.
- 6- خدمة المثل بالأمثال.
- 7- خدمة المثل الفصيح بالمثل العامي.

إنّ طبيعة المثل المتسمة بإيجاز اللفظ من جهة، و كثافة المعنى من جهة أخرى، و قدرته على التعبير المختزل عن كلّ خلجات النفس الانسانية، و عن أحوال المجتمع أهله أن يدخل في علاقة تناسية و تفاعلية مع عدّة أجناس أدبية مثل القصة بشتي أنواعها^(*)، و الشعر، و علم النحو و التفسير و السيرة، إذ نجد له أثرا في كتب الحكمة و الفلسفة و الطّباع، و كتب البلاغة و الموسوعات الثقافية. هذه العلاقة جعلت المثل يسري في الأجناس الأدبية سريان الماء في عروق النبات فترتوي منه، و تزدهر، فهي أبدا لا غنى لها عنه لأنّ (المثل يمثل صفوة اللغة المحكية العفوية، و ما يحويه من خبرة الحواس و الشعور و العقل فيجمع في ثناياه ما بين الحقيقة الفطرية، و المعرفة المكتسبة).⁽¹⁾

هذا عن المثل، و هو يعضد الأجناس الأدبية الأخرى و يتفاعل معها، أما احتياجه هو لهذه الأجناس التي تتفاعل معه، فإنّ المثل كذلك لا يستغني عنها، و كثيرا ما يلجأ أصحاب المصنفات إلى هذه الأجناس من أجل تبيان معانيه، و الوقوف على حقيقته، و خلفياته، و أبرز هذه الأجناس، و أكثرها لصوقا بالمثل القصة و الشعر، فالقصة التي لا يكاد المثل يستغني عنها، و لولا القصة لظل القسم الأكبر من الأمثال غامضا، بل من دون معنى، و قد رأينا نماذج من ذلك و أنّ بعض الأمثال غاب معناها حتى عن فطاحل الأدباء، و تحيروا في تفسيره، بل و ليس أدل على ذلك من لجوء البعض إلى اختراع قصة توائم ألفاظ المثل و يدعى أنّها موردها، و هو ما يسمى (بالأمثال الاعتبارية)⁽²⁾ و نتيجة لهذه الحاجة الملحة، و اللجوء للاختراع و الانتحال، تعدت روايات بعض الأمثال، و تنازعت بينها الأحقية، و الحقيقة معا. أما الشعر فنقدّر أنّه يأتي في المرتبة الثانية بعد القصة، و قد جمع منه اليوسي في مصنّفه ما يربو عن ثلاثة أرباع مما حواه كتابه من القول، فهل هذا الشعر جاء به لخدمة المثل، و توضيح معانيه و مقاصده؟ أم أنّ العلاقة عكسية خدم الشعر بالمثل؟ ذاك ما سنحاول استكناؤه من خلال هذا الفصل.

* قصص لافونتان أمودجا.

1- زلهام، الأمثال العربية القديمة 42، و عبد المجيد عابدين: الأمثال في النثر العربي القديم 174-192، و جاكين جباي: المثل جنسا أدبيا: 280-298. ترجمة: رمضان عبد التواب، و سعيد بنكراد، دار الكلام للنشر و التوزيع، الرباط 1990.
2- أنظر التلقي و السياقات الثقافية، ص: 129.

1- خدمة الشعر بالمعاني المعجمية للمثل

نود قبل الحديث عن احتمال خدمة الشعر لمعاني الأمثال الإشارة إلى المنهجية المتبعة من قبل اليوسي في شرح الأمثال. إنه وقبل التطرق إلى ثنائية المعنى والمضرب الحاضرتين على الدوام في شرح الأمثال إذ هما الأساس في كل مثل فإنّ اليوسي يلجأ أولاً إلى شرح المعاني المعجمية لمفردات المثل شرحاً وافياً بالنثر والأضداد والمرادفات وبالإشارة إلى أصل التسميات وأسباب تسمياتها ثم لا يكتفي بذلك حتّى يأتي ببيت أو أبيات شعرية لا لشيء سوى لتبيان شرح لفظ واحد من المثل، من نماذج ذلك: **أبي الحقن العذرة**

«يفسر كلمة الحقن نثرياً فيقول: الحقن: اللبن المحقون في السقاء إذا صببته فيه وجعلت حليبه على رائبه. واسم السقاء: المحقن على مثال منبر. واسم اللبن: الحقن. قال زهير يصف الخيل: ويرجعها إذا نحن انقلبنا... نسيف البقل واللبن الحقن»⁽¹⁾

أما في المثل: **حال الجريض دون القريض**. فيعلق عليه:

«الجريض الريق يغص به. يقال: جرض الرجل بريقه يجرض كفرح يفرح - إذا ابتلعه بجهد على هم وحزن؛ والجريض: الاختناق بالريق على الموت. قال امرؤ القيس:

كأن الفتى لم يغن في الناس ساعة... إذا اختلف اللحيان عند الجريض»⁽²⁾

سقط العشاء به على سرحان يقول:

«السقوط معروف؛ والعشاء بفتح العين المهملة والمد طعام العشي كالعشى بالكسر جمعه أعشية وعشوت الرجل وأعشيته وعشيته تعشية: أطعمته ذلك، وتعشى هو قال: الفرزدق:

تعش فإن عاهدتني لا تخونني... نكن مثل من، يا ذئب، يصطحبان»⁽³⁾

يتضح من هذه النماذج، كيف أنّ اليوسي عمد إلى الشعر لشرح ما غمض من ألفاظ المثل، فقد أصبح الشعر في هذه الحال بمثابة معجم لغوي تُسكنه به الألفاظ التي استعجمت علينا. وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه «إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله ولم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب، فإنّ الشعر ديوان العرب. وكان إذا سئل عن شيء من القرآن قال فيه شعراً»⁽⁴⁾

1- زهر الأكم، ج:1، ص:59.

2- م. ن، ج:2، ص:145.

3- م. ن، ج:3، ص:169.

4- ابن رشيق، العمدة، ج:1، دار الجليل، ط:4، بيروت 1972، ص:30.

من خلال النماذج التي وردت يتضح لنا بجلاء أنّ اليوسي عمد رأساً على خدمة ألفاظ المثل بوساطة الشعر لأنّ الشعر مرجع و سند و مقومّ من مقومّات الموسوعة الثقافية العربية.

2- خدمة المثل بالشعر

ذهب ابن رشيق إلى الإقرار بشيوع المثل و تداوله فيما نطقت به العرب قديماً و حديثاً، يقول: « المثل السائر في كلام العرب كثير نظماً و نثراً، و أفضله أجزه، و أحكمه أصدقه»⁽¹⁾ ليتأكد التفاعل التقائي و الدال بين البلاغة و تشكيل المثل، و لا سيّما في الخطاب الشعري ، إلا أنّه يستدرك ليؤكد أنّ المثل لا يعاب إذا ورد طويلاً، و كان صاحبه أقدر على حبه و تأليفه: «و قد تأتي الأمثال الطوال محكمة إذا تـــــــولاها الفصحاء من الناس»⁽²⁾ و يستدرك ثانية، لينبّه إلى إمكان أن يعاب المثل إذا كثرت إذ إنّ الكثرة إساءة و تكلف و تعطيل لآلة الإبداع و الايجاز فإنّ الأمثال: « إذا كثرت فهي دالة على الكلفة، فلا يجب للشعر أن يكون مثلاً كلّه حكمة ك شعر صالح بن عبد القدوس، فقد قعد به عن أصحابه و هو يقدمهم في الصناعة لإكثاره من ذلك»⁽³⁾

أما ما عرض له اليوسي في هذا الباب ، فالمثل القائل:

أنا بالقوس، وأنت بالقرقوس، متى نجتمع؟

«القوس بضم القاف: صومعة الراهب. قال الشاعر يذكر امرأة:

لاستفتنتني وذا المسحين في القوس. والقرقوس، على مثال قربوس: القاع الصلب من الأرض وبين المكانين بون بعيد. فيضرب عند التباعد في الأمكنة أو الخلال أو الشيم، كما قيل:

هي الشمس مسكنها في السماء ... فعز الفؤاد عزاء جميلاً

فلن تستطيع إليها الصعود ... ولن تستطيع إليك النزولاً»⁽⁴⁾

فملخص معنى مضرب هذا المثل أنّه يُضرب للمتباعدين في المكانة، و هذه المكانة إما مادية أو معنوية، أي التباعد يكون بين شخصين أحدهما مفارق مكاناً للآخر، أما التباعد من الناحية المعنوية فهو الصفات الخلقية كأن يكون أحد الناس سخياً و الآخر بخيلاً. هنا نلاحظ أنّه خدم المثل فعلاً خدمة جليّة بوساطة الشعر ، و الدليل على أنّ الأمثلة التي ساقها في الشعر تعدّ

1- ابن رشيق، العمدة، ج:1، ص:280.

2- المرجع نفسه، ص:281.

3- المرجع نفسه، ص:281.

4- زهر الأكم، ج:1، ص:84.

أوضح منها في المثل (*) ، حيث ضرب مثلا لهذا التباعد إذ قال أن بين شخصين من التباعد هو ما بين الأرض و الشمس التي تقدر بمئات الآلاف من الأميال، فما بين الشمس و الأرض من البعاد أكبر ما بين الأرض ، و ما بين صومعة الراهب و هنا يحضرنا سؤال لماذا شبه مطلق المثل هذا التباعد بما بين الصومعة و ما بين الأرض مع وجود ما هو أبعد ما بين المكانين؟ مع أن الشمس موجودة بالدوام و معلومٌ بعدها؟ نظن أن الإجابة تحتمل إجابات كثيرة أهمها: أن مطلق المثل قاصر النظر أو الخيال، فلم تتعد عينه الأرض لرؤية البعد بين نقطتين. الاحتمال الثاني أن الصومعة عصرئذٍ أبعد بناء عال فضرب به المثل. الاحتمال الثالث أن صومعة الراهب تحمل نوعا من القدسية و لا يُستطاع الوصول إليها لمكانتها المعنوية .و مهما يكن فإن ما بين السماء و الأرض أبعد ضف إلى ذلك أن اللقاء من المستحيلات إذ لا نحن نستطيع الصعود إليها(الشمس) و لا هي تستطيع النزول إلينا، و قد قيل في مثل هذا(شتان ما بين الثرى و الثريا) إن المثل هنا مخدوم بالشعر، ليس فقط من حيث معناه، بل من حيث شكله كذلك، حيث نلاحظ أن هذا المثل صعب نطق ألفاظه عكس الشعر و النبيرة سهلة المنطق أذ في النفس أنق في السمع. و من هذه النماذج كذلك ما جاء في المثل:

إنكم لتكثرن عند الفرع، وتقلون عند الطمع. « هو كلام النبي ﷺ، قاله للأنصار يصفهم بذلك. والفرع يكون على وجهين: أحدهما الذعر والجزع، وهو كثير الاستعمال، والآخر الاستنجد والاستصراخ.

ومعنى الكلام المذكور وصف الأنصار رضي الله عنهم بالشجاعة والإقدام، وبذل النفوس في نصرته الإسلام، وتجشم المضائق في ذلك والعظائم، والتسارع إلى المكارم مع الزهد التام، ورفع الهمة عن الحطام. وهو معنى قوله: وتقلون عند الطمع، أي عند وجود الطمع في الناس لسبب من أسبابه، ويصح أن يراد بالطمع المال المطموع فيه، أي: تقلون عند حضور الأموال واقتسامها وانتهابها، والقلة على بابها، أو للنفي وهو أبلغ. وناهيك بهذا الكلام مدحا وثناء وبالأنصار رفعة وسناء! ومثل هذا المعنى قول عنتره:

يخبركم من شهد الواقعة أنني ... أغشى الوغى وأعف عند المطعم

و من هذا المعنى قول المهاجرين في الأنصار: إنهم يكفوننا المؤونة، ويشاركوننا في المهنا» (1)

*و إلا فما معنى أن نشرح كلاما بكلام أغمض و أصعب منه.

1- زهر الأكم، ج: 1 ص: 128.

و ما جاء من أشعار في شرح هذا المثل على طوله هو أفضل ما خدم الشعر فيه المثل: حيث أتى اليوسي بما لا يقل عن شعراء ثلاثة هم: عنتره، وأبو بكر الخوارزمي، وقول شاعر، لم يذكر اسمه، و عبّر عنه بالأول، كل هذا لتوسيع مفهوم المثل من دماثة أخلاق الأنصار من أنهم يحضرون في أثناء المهمات الصعبة و يتغيّبون عند توزيع الأرباح والأموال، ثم إن اليوسي كأنه لم يكتف بما أورده من الشعر يضاهي به المثل في المعنى، بل راح يأتي بشعر ينقض معنى المثل، عملاً بقاعدة (بأضدادها تتميز الأشياء)، و قد أشرنا إلى هذا في مبحث سابق.

و كذا في المثل: **الجواب ما ترى لا ما تسمع!**

في شرح هذا المثل ذكر اليوسي قصة مطولة ملخصها أنّ الملك الإسباني (رودريك) بعث رسالة طويلة إلى (يعقوب بن عبد المؤمن) يتحداه فيها أن يغزو بلاده إن استطاع، فردّ عليه (يعقوب) برقعة من تلك الرسالة قائلاً له نص هذا المثل. و لإيضاح هذا المثل و الإتيان له بنظائر قال اليوسي إنّ الملك (يعقوب نفسه) استشهد ببيت للمتنبي:

و لا كتب إلا المشرفية عنده و لا رسل إلا الخميس العرمم

ثم استشهد اليوسي أيضاً ببيت دعما لمعنى المثل، نسبه إلى شاعر أسماه الحماسي (*):

و تجهل أدينا و يحلم رأينا و نشتم بالأفعال لا بالتكلم⁽¹⁾

و جلي هنا مدى خدمة الشعر للمثل، فما الفرق أن يخدم المثل بالشعر لا بالنثر؟ الفرق -حسب ما نرى- أنّ الشعر أيسر على الذاكرة من النثر فالمتلقي قد يرسخ في ذاكرته بيت شعر في شرح مثل، و لا يرسخ المثل نفسه، و لكن إذا رسخ ذلك الشعر الشارح للمثل في ذاكرة المتلقي تذكر به المثل المنسي للعلاقة التناسلية الموجودة بينهما و بعض الأمور تذكر ببعض. و يضاف إلى أنّ بين الشعر و المثل قواسم مشتركة أهمها التكتيف في التعبير الموجود في كلا الجنسين.

و من تلك النماذج كذلك: **استسمن ذا ورم.**

« تقول: استسمنت الشيء إذا عددته سميماً؛ والورم نتوء وانتفاخ في الجسد يقال، ورم الجسد بالكسر ورمًا، تورم واستسمن ذي ورم هو أن يرى الحجم الناتئ من علة فيحسب ذلك سمنا

* لقب يطلقه اليوسي على عدد من الشعراء.

1- زهر الأكم، ج: 1 ص: 66.

وشحما. والمثل مشهور عند المتأخرين (**). يضربونه عند خطأ الرأي في استجادة القبيح واستحسان الخبيث واستصواب الخطأ لأمانة وهمية كاذبة: قال أبو الطيب:

أعيذها نظرات منك صادقة ... أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
وما انتفاع أخي الدنيا بناظره ... إذا استوت عنده الأنوار والظلم

و في المقامات الحريريّة: قد استسمنت ذا ورم ونفخت في غير ضرم». (1) (***)

و خدمة المثل بمضمون الشعر لا يخفى على الأعشى فكيف بالبصير؟ و خدمته بالشعر و أيّ شعر؟ إنّه شعر المتنبي الذي اشتهر في شعره بالأمثال و الحكم فهل من قبيل الصدف أن يختار اليوسي هنا أشعاره للاستشهاد بها هنا!؟

و مما جاء على هذا المنوال أيضا المثل: أساء سمعاً فأساء جابياً.

«الإساءة ضد الإحسان؛ والسمع تقدم؛ والجابة اسم من الإجابة يقال: أجابه إجابة والاسم الجابة كالطاعة والطاقة بمعنى الإطاعة والإطاقة. قال الشاعر:

وما من تهتقين به لنصر ... بأقرب جابة لك من هديل

يضرب في سوء المسألة والإجابة في المنطق والإجابة على غير فهم. ونظمه أبو العتاهية فقال:

إذا ما لم يكن لك حسن فهم ... أسأت إجابة فأسأت سمعاً

ولست الدهر متسعاً لحل ... إذا ما ضقت بالإنصاف ذرعاً (2)

يلاحظ من هذه الأشعار مدى تفاعل المثل مع الشعر و تواصله، حيث دخل معه في

علاقة تناصية واضحة عندما أخذ أبو العتاهية نص المثل و سلكه في حبل شعره، كما تسلك

حبة السبحة في سلكها الرقيق. كما يتضح من مجموع هذه الأمثال المضروبة أنّ الشعر يخدم

المثل و ينير كثيرا من نقاط الظل التي تنتابه ، لا سيما أنّه أكثر تكثيفا و اختزالا من الشعر

و نستطيع القول إنّ المعاني المطوية بالمثل، منشورة بالشعر.

و لكن هل من الممكن أن يتم نقيض ذلك؟ أي أن يُخدم الشعر بالمثل؟

** لم يوضح اليوسي من هم المقصودون بقوله: المتأخرين، و لكن المظنون أنّهم من يسميهم الميادي بالمولدين و الذين يعني بهم من جاءوا بعد الإسلام أي أنّ أمثالهم لا تنتمي إلى العصر الجاهلي. و كان أبو بكر الخوارزمي أول من ألف كتابا كاملا في أمثال المولدين سماه كتاب الأمثال، و قد حققه محمد حسين الأعرجي.

1- زهر الأكم، ج:3، ص:178، 179.

*** نلاحظ هنا أنّ المثل خدمه اليوسي بالمقامات كذلك.

2- م، ن، ص:182.

3- خدمة الشعر بالمثل

لو أقمنا معيارا كمياً بما أورده اليوسي من الأمثال الشعرية و الأمثال النثرية لما كان هناك مجال للمقارنة أصلاً لغلبة الأمثال الشعرية على الأمثال النثرية، إلا أن اليوسي ينبهنا إلى أنّ ما أورده من أشعار لا يمكن النظر إليه على أنه كلّ أمثال سائرة، بل بعضها منها، كما قال: (يصح أن يُتمثلُ بها).

و المنهج الذي اتّبعه اليوسي في ايراد الأمثال الشعرية أنه يأتي أولاً بالأمثال النثرية مرتبة على حروف المعجم، و عند الفراغ منها يردفها بأمثال شعرية، و الذي يربط بين تلك الأشعار هو حرف الروي غالباً، فعندما يفرغ من سرد أمثال نثرية في باب الباء مثلاً يتبعها بأشعار ينتهي حرف رويها (بالباء)، أو إن شئنا أشعاراً مقتبسة من قصائد بائية. أما المعاني المتضمنة أشعاراً فقد تجتمع في بعض المعاني و قد تفرق، شأنها في ذلك شأن الأمثال النثرية جمعها حرف ابتدائها، و فرقته معانيها بحسب الظروف التي قبلت فيها.

هذه الأشعار إما أنها تقصت أمثالا شعرية، و أدمجتها في أعريضها أو كانت مستقلة بذاتها تُضربُ مثلاً بمجموع البيت أو ببعضه أو بشطره، مع الإشارة إلى أنّ الأمثال النثرية التي أدمجها الشعر في أعرضيه ترد إما بلفظها أو بمعناها، و لكن إذا وردت بلفظها ينبغي أن تكون موزونة، و إن لم تكن فإنّ الشاعر يتصرف فيها بالجوازات الشعرية حتى تستقيم وزناً و تقفية بالرغم من أنّ المثل لا يقبل التغيير و التبدل، إلا أنّ ذلك يُتجاوز في الشعر، كما أشار إلى ذلك اليوسي في مقدمة مصنفه، نقلاً عن المرزوقي: « المثل جملة من القول مقتضبة من أصلها أو مرسلها بذاتها، تنسم بالقبول و تشتهر بالتداول، فتنتقل عما وردت فيه إلى كلّ ما يصح قصده بها من غير تغيير يلحقها في لفظها، و عما يوجبها الظاهر إلى أشباهه من المعاني و لذلك تضرب و إن جهلت أسبابها التي خرجت عليها، و استجيز من الحذف و مضارع ضرورات الشعر فيها ما يُستجاز من سائر الكلام»⁽¹⁾

فمن الأشعار التي احتوت أمثالا اقتبست اقتباساً دون تغيير، قول الشاعر:

بذا قضت الأيام ما بين أهلها ... مصائب قومٍ عند قومٍ فوائدُ⁽²⁾

إنّ الشطر الثاني من البيت سائر، تعرفه الخاصة و العامة، لكثرة ذكره و تداوله.

ومن الصنف الذي كان شعراً في أصله ثم اقتبس منه، و صار مثلاً بعد أن سبق الشعر إليه:

1- زهر الأكم، ج: 1 ص: 20، 21.

2- المرجع نفسه، ص: 144.

أبي منبت العيدان أن يتغير.

أخذ من قول جميل بن عبد الله بن معمر العذري:

بنو الصالحين الصالحون ومن يكن ... لأبواء صدق يلقيهم حيث سيراً

أرى كل عودٍ نابتا في أرومةٍ... أبي منبت العيدان أن يتغيراً

و شرحه: «أبي منبت العيدان أن الخ... يريد أن الناس أصول مختلفة، وأعراق متباينة كما في حديث: الناس معادن، وكل أحد باق على أصله: فمن كان من أصل كرم لم يتحول منه ومن كان من أصل لؤم لم ينحرف عنه وجعل الناس أعواداً وأعراقها منابت على طريق التمثيل» (1).

إنّ كلا الأنموذجين الواردين أصبح المثل فيهما شهيراً لاحتوائه على مثل يسترشد به عكس الأشعار التي قد لا يُلتفت إليها. إنّ الشعر الذي فيه مثل كالشجر الذي فيه ثمر يُعتنى به أكثر من الشجر الذي ليس فيه ثمر.

و بالجملة فإننا على الإشكال الذي طرحناه من كون الشعر يخدم المثل أو المثل يخدم الشعر أنّ الشعر يخدم المثل بأن يزيل غموضاً لوحظ فيه، إذ له دور معجمي، و يخدمه كذلك بأن يحضنه في أعاريضه فيجعله أيسر لأنّه مخفف بالوزن و أسير لأنّ الشعر أسير من النثر، فالمثل الذي وجد احتضاناً من الشعر أوفر حظاً أن ينتشر بين الناس و لهذا قيل: (أبشع من مثل غير سائر)، إنّ عيب المثل أن يبقى سجين الكتب و المطويات و المخطوطات، و لا يتداول.

أما من حيث خدمة المثل للشعر، فإنّ الشعر المشتمل على المثل يكون أجدر بالعناية والحفظ، لولوع النفوس بالأمثال و الحكم أينما وُجدت و في أيّ جنس أدبي كانت، لا سيما الشعر ليسرّه على الألسن، و ما تشبث الناس بالقصص و الرويات إلا لأنّ فيها أمثالاً و حكماً و عبراً كشعر زهير و المتنبي.

إنّ العلاقة التناصية الموجودة بين المثل و الشعر هي علاقة تفاعلية تكاملية فالمثل يخدم الشعر. و الشعر يخدم المثل.

و لكن هل الشعر هو الجنس الأدبي الوحيد الذي خدم به اليوسي المثل؟

-خدمة المثل بالنثر الفني-

في المثل: أثقل من حديث معادٍ

بعد أن شرح اليوسي هذا المثل شرحا وافيا بأمثلة و أشعار، قال: « والنفس لللطافتها و روحانيتها، أكثر من البدن تألما بالإذابة و أقل صبرا و احتمالا... »⁽¹⁾ بقطعة نثرية مسجوعة تصبُّ معانيها كلها في تدعيم معنى المثل، حيث قال: قال بعضهم في صفة ثقيل: « هو أثقل من دواء بلا علة، وأبغض من خراج بلا غلة؛ قد خرج عن حدِّ الاعتدال، وذهب من ذات اليمين إلى ذات الشمال؛ يحكي ثقل الحديث المعاد، ويمشي على القلوب والأكباد؛ إذا نظرت إلى مشيته أنشدت:

مشى فدعا من ثقله الحوت ربه ... وقال: إلهي زيدت الأرض ثامنه! »⁽²⁾

يلاحظ أنّ اليوسي قد جاء بقطعة نثرية مسجوعة خدم بها معنى المثل. بل إنّ القطعة النثرية نفسها حوت في ثناياها المثل نفسه ثمّ إنه لم يكتفِ بهذا النثر حتى جاء أيضا بالشعر لخدمة تلك القطعة النثرية التي خدمت المثل، و بذلك يكون قد جعل المثل أكثر انتشارا و نفعا.

من أبرز ما يدل على خدمة المثل بالنثر الفني كذلك ، ما جاء في شرح هذا المثل الذي نثبته كلّه على طوله لأنه إذا تُصرف فيه أو اقتبس منه فسدت صلاحيته، و فسد وجه الحجة فيه. و المثل هو: خير الأمور أوساطها.

قال اليوسي في شرحه: «الخير هنا اسم تفضيل. يقال: فلان أخير من فلان. وتحذف الهمزة غالبا فيقال: خيرٌ منه. فإن أطلق تناول جميع أوصاف المدح، وإن قيد بشيء تقييد والأمور جمع أمر وهو عام والأوساط جمع وسط بمعنى متوسط بين طرفين»⁽³⁾ وهذا الكلام يروى حديثا وهو من جوامع الكلم التي أعطيها صلى الله عليه وسلم وهو متناول أمور من الديانات والأخلاق والآداب والسياسات والمعاشرات والمعاملات تعجز عقول الخلق عن إحصائها. وقد صنّف ذوو البصائر من أهل العلم في تفاصيل ذلك دواوين. وهو بحر لا ساحل له، جمع له في جملة واحدة كما قال صلى الله عليه وسلم: أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصارا.

1- زهر الأكم، ج:2، ص:6.

2- م.ن، ص:7.

3- م.ن، ص:203.

قال الجاحظ: ينبغي للرجل أن يكون سخيا لا يبلغ التبذير، حافظا لا يبلغ البخل، شجاعا لا يبلغ الهوج، محترسا لا يبلغ الجبن، حيا لا يبلغ العجز، ماضيا لا يبلغ القحة، قوالا لا يبلغ الهذر صموتا لا يبلغ العي حليما لا يبلغ الذل منتصرا لا يبلغ الظلم وقورا لا يبلغ البلادة نافذا لا يبلغ الطيش. قال: ثم وجدتُ عليه صلى الله عليه وسلم جمع ذلك في كلمة واحدة وهي قوله عليه السلام: " خير الأمور أوساطها " وما ذلك إلا لأنه صلى الله عليه وسلم أوتي جوامع الكلم. انتهى (*) . وإلى هذا أشار بعض الشعراء بقوله:

عليك بأوساط الأمور فإنها ... نجاة ولا تركب ذلولا ولا صعبا!

و الآخر بقوله:

لا تذهبن في الأمور فرطا ... وكن من الناس جميعاً وسطاً!

و المعري في قوله:

فإن كنت تهوى العيش فبالغ توسطاً ... فعند التناهي يقصر المتناولُ

توقى البدور النقص وهي أهلة ... ويدركها النقصان وهي كواملُ (1)

ألم تخدم هذه القطعة الفنية المثل و توسّع من مفهومه؟ صحيح أنّ معنى المثل مفهوم شكلاً و مضموناً، و لكن أن يتصور المتلقي كل تلك المعاني التي جاء بها اليوسي نقلا عن الجاحظ أو غيره من الشعراء و الأدباء ، و التي ضُمت في هذا المثل، أو أنّ أفق انتظار هذا المتلقي يتسع لكل تلك المعاني، هذا مما يُستبعد منه. إذن فالنتيجة أنّ هذه القطعة النثرية خدمت فعلا هذا المثل، و بدون ايرادها يكون المعنى محروما من معانٍ إضافية لا يستحق حرمانه منها، و ليس أدل على ذلك مما أورده اليوسي نفسه ها هنا من أنّ هذا المثل قد ألف العلماء في معناه العديد من المصنفات، إذ يُعدُّ هذا كما قال: بحر لا ساحل له. إنّ في كتاب اليوسي قطع ثرية فنية خدم بها معاني الأمثال إلا أنه من غير الممكن الإتيان بها جميعا.

* كلمة انتهى يستعملها اليوسي بالدوام عندما ينقل كلاما لغيره و ينتهي منه حتى لا يختلط كلامهم بكلامه هو، و يبدو أنّ المحققين احترما ذلك، و لم يتصرفا بوضع كلام اليوسي بين علامتي تنصيص، حتى تكون النسخة المرفونة من الكتاب مطابقة للنسخة المخطوطة.

1- ينظر زهر الأكم، ج:2، ص:203.

5-خدمة المثل بالقصة و السيرة

لم يكن كل ما أتينا على ذكره إلى الآن هو جلّ ما وظّفه اليوسي من وسائل لخدمة الأمثال، بل عمد إلى الإتيان بقصص كانت طويلة لا لشيء سوى لكونها تحوي خطابا أدبيا يوسّع من دائرة المثل. و من نماذج ما جاء في القصة ما حواه شرح المثل:

أبطأتَ بالجواب، حتى فات الصواب. (1)

حيث قال اليوسي: « قاله قصير لجذامة الأبرش في قصة طويلة. وملخصها على ما ذكر الإخباريون يزيد بعضهم عن بعض ويدخل حديث بعضهم في بعض... » (2) و القصة كما ذكر طويلة لا يمكن إيرادها كلّها، و هي قصة لجأ إليها لتقسيمها قسمين بمناسبة ورود كلّ مثل و هذه القصة تعدّ أشهر القصص و أطولها و فيها وُلدت عدّة عبارات أصبحت بعد ذلك كلّها أمثالا سائرة. لقد أدت دورا مركزيا في توضيح الخلفية المرتبطة بالأمثال المؤلدة عنها و بدون معرفتها تتغلق تلك الأمثال و تصبح مجرد طلاسّم و في أحسن الأحوال سيكثر فيها التأويل و يتم تشويش ذهن المتلقي.

أما من السيرة النبوية فما ورد في المثل: سبّ من سبك يا هبار!

فإنّ اليوسي يقول: « يتمثل به كثيرا وهو من كلام النبي صلى الله عليه وسلم وكان هبار بن الأسود تبع زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرجت من مكة مهاجرة فروعها وأسقطت ذا بطنها في قصة مشهورة في السير. ثم أسلم وصحب النبي صلى الله عليه وسلم فكان المسلمون يسبونونه بما فعل حتى شكا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له: سبّ من سبك يا هبار! فكفّ الناس عن سبه بعد». (3)

وظّف اليوسي أيضا السيرة النبوية و الحديث الشريف لتفعيل معنى المثل و مضربه، بل إنّه يلجأ أحيانا إلى الإتيان بقصتين إحداهما هي قصة مورد المثل، قصة أخرى تعدّ أنموذجا تطبيقيًا لضرب المثل، و كأنّه يريد من وراء ذلك تعليم المتلقي كيف ومتى يستعمل المثل، لأنّ مستعمل المثل قد يخطأ فيستعمل المثل في غير محله و قد يستعمله صحيحا إلا أنّه في غير الظرف المناسب، و هو ما أشرنا إليه قبلا من توظيف كلام، أو مثل صحيح إلا أنّه غير موافق لمقتضى الحال.

1- زهر الأكم، ج:1، ص:187.

2- المرجع نفسه.

3- المرجع نفسه، ج:3، ص:159.

-خدمة المثل بالأمثال-

لا يتوانى اليوسي في استعمال كل الآليات المتاحة في سبيل إيصال خطابه إلى المتلقي، إذ يعمد إلى توظيف أمثال أخرى غير المثل المدروس، معه في المعنى والمضرب و منها ماجاء في شرح المثل: رُبَّ أخٍ لم تلده أمك! رُبَّ (*) : حرف جار يدل على الكثرة والقلة معا أو على إحداها فقط أو أكثر و لا يدل على شيء منهما إلاّ بالقرائن والأخ معروف وفيه لغات معروفة. وأصل المثل أن لقمان بن عاد رأى مع امرأة رجلا يلعبها وتلاعبه خالين ومعهما صبي صغير يبكي وهما مقبلان على شأنهما لا يكثران به. فقال لها: من الرجل؟ قالت: أخي فقال حينئذ: رُبَّ أخٍ لم تلده أمك! تكذيبا لها في دعواها. يقال: إنه أخوك في الصداقة والمودة لا بالقرابة والنسب.

وقريب من هذه الحكاية ما حكى عن بعضهم أنه دخل عليه رجل نصراني ومعه فتى وسيم من أهل ملته فقال له: من هذا الفتى؟ فقال: بعض إخواني. فأنشد حينئذ:

دعتني أباها أم عمرو ولم أكن ... أباها ولم أرضع لها بلبان

دعتني أباها بعد ما كان بيننا ... من الأمر ما لا يصنع الأخوان

وقال أيضاً في معنى هذا المثل: رُبَّ بعيدٍ أقرب من قريب. وقالوا: القريب من قرب نفعه. وقالوا: القريب من تقرب لا من تنسب. (1)

و محل الشاهد في هذه الأمثال و الأمثلة الثلاثة ، شرحة لنا المثل بثلاثة أمثال أخرى وهذا يعني أن جنسا أدبيا ما، يمكن أن يخدم نفسه بنفسه. و مع هذا لم يكتفِ اليوسي بالأمثال فقط بل دعمها أيضا بقصص و أشعار حتى لا ينتهي القاريء من قراءته إلا و هو قد استوعب مضمون ذلك المثل، و أصبح فعلا ماثلا بين يديه و أمكنه استعماله و تداوله.

و لو قارنا هذا بما جاء عن الميداني فماذا قال عن شرحه؟

يقول الميداني: «يعني به الصديق فإنه ربما أربى في الشفقة على الأخ من الأب و الأم» (2). هكذا بكل إيجاز، فلا إشارة إلى إعراب كلمة (رب) و لا إلى قصة المورد و لا دعم المثل بأمثال أخرى و لا أشعرا، فستان بين التحليلين و القراءتين.

* لعل اليوسي نسي أن يذكر أن (رب) حرف جار شبيه بالزائد، فهو كما يبدو اهتم بالمعنى أكثر من الإعراب.

1- زهر الأكم، ج:3، ص:36، 37.

2- مجمع الأمثال، الميداني، ج:1، ص:341.

أما (أبو هلال العسكري) فقد أورد أشعاراً مدعمة، وأمثلة أخرى و هو إن لم يضاعه اليوسي في شرحه لهذا المثل فقد اقترب منه كثيراً، و هذا قوله فيه ننقله كاملاً: «وأصل هذا المثل هو الذي ذكرناه في خبر لقمان بن عاد ثم استعمل في إعانة الرجل صاحبه وانصبابه في هواه وانخرطه في سلوكه حتى كأنه أخوه لأبيه وأمه ويقولون إن أخاك من آساک وقيل لرجل ممن أنت؟ قال ممن برّني وهو على حسب قول الأعشى:

"فإن القريب من يقرب نفسه ... لعمر أبيك الخير لا من تنسباً"

وقال أبي بن حمام بن جابر:

" أعاذتني كم من أخ لـي أوده ... كريم علي لم يلدني والده "

" إذا ما التقينا لم تريني أـلـذـه ... ولكنني مثن عليه و زائده "

" وآخر أصلي في التناسب أصله ... يباعدني في رأيه وأباعده "

" يود لو أني كنت أول فاقـد ... وأيضاً أود الود أني فاقده " (1)

و لقد أتى أيضاً بالضد أي بالأخ الذي لا يُتفق معه، و إن كان في النسب أخوا حقيقة.

ففي هذا الأنموذج استعمل حديثاً قدسياً لغاية تأكيد ما شرح به المثل، بل ضاهاه برواية حديثة أخرى توسعا في الشرح، و الإبانة، و هذا مما يدعى أيضاً بالتناص لأنّ الحديث احتوى أيضاً في جملة المحكية المثل، و لكن بلفظه، لا معناه.

7- خدمة المثل الفصيح بالمثل العامي

يجسدّ اليوسي حقيقة، لا مجازاً مقولة (إنّ الشاعر ابن بيته) و هذا ما يدلّ عليه كثرة معرفته و استشهاده بأمثال العامة خدمة للأمثال الفصيحة، إلاّ أنّه غالباً ما يورد المثل العامي كما ترويه العامة معنى لا لفظاً، بمعنى أنّه يعمد إلى تفصيح هذه الأمثال ومن نماذج ذلك: الذئب يغبط بذى بطنه.

يقول شارحا: «الذئب معروف، مهموز، ويترك همزه تخفيفاً؛ والأنثى ذبيبة. والغبطة: المسرة وتكون للحسد تارة، وهو أن يتمنى أن يعطى ما للغير من النعمة مع زوالها عن الغير وهو مذموم، وتارة لا مع محبة زوالها عن الغير وهو المحمود. والغبطة بهذا المعنى خلاف الحسد. ويقال: غبطه يغبطه كضربه يضربه، وغبطه يغبطه كسمعه يسمعه؛ غبطة. والبطن معروف وذو البطن: صاحب البطن، وهو ما فيه»⁽¹⁾

ومعنى المثل إنّ الذئب يظن به أبداً الشبع والبطنة لمّا يروى من عدوه على الناس والمواشي ولا يظن به الجوع، وإنّ كان مجهوداً من الجوع. فيضرب للرجل يتهم بالمال ولا مال له. ومثل هذا قول الشاعر:

ومن يسكن البحرين يعظم طحاله... و يغبط بما في بطنه وهو جائع

و نحو هذا في أمثال العامة قولهم: من رأى الجمل الأبيض ظنه كله شحماً.⁽²⁾

دعم اليوسي في هذا المقام المثل الفصيح بعد أن استوفى شرحه بالمثل العامي بعد أن فصّحه و ربط المثل الفصيح بالواقع و تقريبه إلى أفهام العامة بمثل متداول عندهم. و لعلّ الرواية الأصلية لهذا المثل هي (اللي يشوف الجمل لبيض إحسبو قلع شحم).

إنّ ومن خلال مباحث هذا الفصل نستنتج أنّ اليوسي قد وظّف كلاً من

الشعر و القصة و السيرة و المثل نفسه فصيحة و عامية و حتى المفاهيم الفلسفية و النفسية في سبيل عضد المثل بوساطة شرحه و الإبانة عن مورده و مضربه، و حتى كيفية توظيفه و الاستعانة به في التداول و الاحتجاج.

و معانيها، ولو لم يكن معرفة المذهب شيئاً يفيد لما وضعته المعاجم و الموسوعات، و التراجم و السير في قائمة أوليات ما يذكر عن المترجم له. فما إن نعرف ديانة الشخص، و مذهبه سماويا

1- زهر الأكم، ج:3ص:7.

2- المرجع نفسه.

كان أو أرضيا، إلا و قد عرفنا الكثير عن ذلك الشخص فهو بمثابة عنوان لمتن الكتاب، و كم في
العناوين من دلالة و ايحاء.

الفصل الرابع القراءة السياقية

- 1- دور السياق في خدمة المثل.
- 2- قصص الأمثال:
 - 1-2- المثل ذو القصة المنفردة.
 - 2-2- المثل ذو القصة المزدوجة.
- 3- قصص المضرب.
- 4- أمثال بلا قصص.

هل للسياق دور في توضيح معاني الأمثال؟ وهل وظّف اليوسي النظرية السياقية كما وظف غيرها من الوسائل، والمجسات النقدية من أجل الإفادة والوقوف على معاني الأمثال كاملة غير منقوصة؟ وهل الأمثال أصلا في حاجة إلى أن تُعرف سياقاتها التي صاحبها أو أنت فيها حتى يُفهم المقصود منها؟ ذلك ما سنحاول الإجابة عنه.

على الرغم من أهمية السياق في ضبط أصل المثل ودواعيه ومقامات ذكره واعتماده، فإنّ المثل من حيث هو نص، يدخل في علاقة عملية مع التلقي، الذي: «لا يقوم فحسب بعملية ترجمة للبيانات الواردة دلاليا في النص، بل هو الذي يضع لها نوع الإطار الذي يراها من خلاله»⁽¹⁾ علما أنّه يجب التأكيد على أنّ القارئ لأصناف الخطابات، ليس واحدا، ولا ينتج بمفرده خطابا متميزا، يتم التوجه إليه، وهو قارئ متضمن في النص، ومختلف عن القارئ الفعل الخارجي»⁽²⁾، فالى من كان اليوسي يوجّه تحليلاته، ووجهات نظره؟ هل إلى متلق بسيط، يظل بموجبه المثل حالة شعبية، لا حالة إبداعية، أم إلى متلق خاص، لا يعلمه إلا متمرس وعارف بطبيعة خطاب ما؟»

1- دور السياق في خدمة المثل

إنّ الكلمات والألفاظ مهما تبلغ درجة وضوحها وإشراقها تظل عاجزة أحيانا عن توضيح معاني بعض الأمثال، حتى أنّ بعضها، وإن حوتها بطون الكتب منذ أقدم الأزمان ظلت غامضة المعنى، لا تُعلم لها دلالة ولم يدر الشراح لها معنى على الرغم مما أتوه من قوة البيان والحفظ وحسن الاستنباط. هذا ما أشار إليه كلٌّ من اليوسي والميداني إلى أنّ ثمة أمثالا لا يُعلم معناها، بالرغم من التوصل إلى معلومية كلماتها، لا لشيء سوى لغياب السياق الذي وردت فيه أول مرة، أو ما يُصطلح عليه بقصتها التفسيرية، كقول الميداني في المثل: (إنّ الموصين بنو سهوان)، حيث علّق عليه: «هذا المثل تخبّط في تفسيره كثير من الناس، فبنو سهوان هم الناس، أو الغافلون، أو آدم عليه السلام»⁽³⁾. والمعنى الذي اختاره الميداني، وتوقّف عنده هو: «إنّ الذين يوصون بالشيء يستولي عليهم السهو حتى كأنّه مؤكّل

1-صلاح فضل، بلاغة الخطاب و علم النص،ص: 261.

2-المرجع نفسه، ص: 108.

3-مجمع الأمثال، الميداني، ج: 1، ص: 17.

بهم»⁽¹⁾ إلا أن هذا يظل رأياً من الآراء ، لا يمكن أن يشكّل الحقيقة المطلقة، التي من دون معرفة السياق تظل غائبة، و يظل معنى المثل معها لغزاً من الألغاز، تتقاذفه الآراء و الاجتهادات التي قد تصيب، و قد تُخطيء.

يتضح من المثال الذي أورده الميداني أنّ الكلمات و الألفاظ لا تقف حجر عثرة في سبيل التوصل إلى المعنى في هذا المثل، إذ هناك من يرى أنّ الكلمات هي من يحول دون الفهم الصحيح، و أنّ هناك كلمات باثرة لم تعد قابلة للإستعمال، إلا أنّ الجاحظ يرى غير هذا الرأي إذ يقول: « و ليس في الأمر لفظ يسقط البتة ، و لا معنى يبور حتى يصلح لمكان — الأماكن »⁽²⁾.

يستنتج من كلام الجاحظ أنّ الكلمات كلّها صالحة للإستعمال، و لكن الذي ينقصها هو السياق المناسب و الذي عبّر عنه بالمكان، أو بعبارة أخرى المقام المناسب للمقال. و لا شك أنّ شخصية المرسل تعدّ كذلك ضمن السياق الذي لا يتم المعنى إلاّ به. أما دور السياق في الأمثال، فيقول ابن الأثير عن المثل: « قد جاء عن العرب في جملة أمثالهم : « إن يبغ عليك قومك لا يبغى عليك القمر » و هو مثل يضرب للأمر الظاهر المشهور، و الأصل فيه ، و كما قال المفضل بن محمد—أنّه بلغنا أنّ بني ثعلبة بن سعد بن ضبّة في الجاهلية تراهنوا على الشمس و القمر ليلة أربع عشر من الشهر، فقالت طائفة: تطلع الشمس و القمر يُرى— و قالت طائفة: يغيب القمر قبل أن تطلع الشمس، فتراضوا برجل جعلوه حكماً فقال واحد منهم: إنّ قومي يبغون عليّ، فقال الحكم: إن يبغ عليك قومك لا يبغى عليك القمر. و من المعلوم أنّ قول القائل: "المثل" إذا أخذ على حقيقته من غير نظرٍ إلى القرائن المنوطة به ، و الأسباب التي قيل من أجلها لا يعطي من المعنى ما قد أعطاه المثل، و ذلك أنّ المثل به مقدمات و أسباب قد عُرفت، و صارت مشهورة بين الناس، معلومة عندهم، و حيث كان الأمر كذلك جاز إيراد هذه اللفظات في التعبير عن المعنى المراد.

فابن الأثير يوضّح هنا دور السياق في فهم معنى المثل ، و مضربه، و الذي بدونه لا يُفهم، ثم يُواصل قوله معللاً: « و لولا تلك المقدمات المعلومة ، و الأسباب المعروفة لما فهم من قول القائل "المثل" ما ذكرناه من المعنى المقصود ، بل ما كان يُفهم من هذا القول معنى مفيد لأنّ

1- مجمع الأمثال، الميداني، ج:1، ص:17.

2- الجاحظ، البيان و التبيين، ج:1، ص:93.

البغي هو الظلم، والقمر ليس من شأنه أن يظلم أحداً، أو كان يصير معنى المثل: إن كان يظلمك قومك، لا يظلمك القمر، وهذا الكلام مختل المعنى، ليس مستقيم»⁽¹⁾.
إنها الإشارة إلى الدور المحوري للسياق في تأدية المعنى في المثل.
و هناك مثل آخر هو: **الصيفُ ضيَّعتِ اللبْنَ**. فماذا يفهم المتلقي من "الصيف ضيَّعتِ اللبْنَ"، بلا شك لا يفهم شيئاً ما لم يرجع إلى السياق الذي ورد فيه.
و كذلك المثل: **"أكلت يوم أكل الثور الأبيض"**، الذي لا يفهم منه شيء دون الرجوع إلى منبته و مورده، و قس على ذلك معظم الأمثال نقول معظم الأمثال لأنّ بعض الأمثال قد تستغني عن السياق، و لكن السياق المراد به قصة المورد لا السياق بعامة، إذ السياق سياقات.
و لكن كيف يؤدي السياق دوره في عملية التواصل و تلقي المثل؟

2- قصص الأمثال

إنّ القصة في المثل أو قصة المثل هي الحاضنة له، و هي هويته التي لا يُعرف إلا بها و سياقه الذي لا يفهم و لا يتداول إلا به فهو به معرفة و بغيره نكرة (و لذا فإنّ الأذى يلحق بالنصوص عندما تُتزعُ من سياقاتها الأدبية و الثقافية بما يحول دون تنشيط خصائصها الفنية)⁽²⁾ و لهذا حرص اليوسي على إيراد قصص الأمثال كاملة غير منقوصة مهما يبلغ طولها كما هو الشأن في قصة (الزباء)، و (قصير)، و غيرها⁽³⁾ من القصص التي سنشير إلى بعضها في هذا المبحث.

2-1- المثل ذو القصة المنفردة

ورد عن اليوسي هذا المثل: **ابنك من دمي عقبيك**، و عقّب عليه:
«الدم أصله دمي. و نقول: دمي الشيء بالكسر يدمى فهو دم و دام و أدميته أنا و دميته تدمية. و هذا المثل كالذي قبله. قيل: و قائله امرأة الطفيل بن ملك بن جعفر بن كلاب. و كانت من بلقين و ولدت للطفيل عقيل بن الطفيل فتبنته ضرثها كبش بنت عروة بن جعفر بن كلاب. ثم إنّ عقيلاً ذات يوم ضربته أمه فجاءت كبشة فمنعتها و قالت ابني! ابني! فقالت لها البلقينية ابنك من دمي عقبيك و هو بكسر الكافين مخاطبة بها أي: ابنك هو الذي نفست به حتى أدمى النفاس عقبيك لا

1- ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر، 1، دار الرفاعي، ط: 2، الرياض 1983 ص: 75، 76.

2- ينظر التلقي و السياقات الثقافية، عبد الله إبراهيم، ص: 89.

3- تنظر هذه القصة في ج: 1، ص: 187. من زهر الأكم.

الذي تتبينه ولم تلبه. ولما قالت البلقينية هذا الكلام لكبشة انقلبت عنها مغمومة منكسرة إذ لم يكن لها ولد وتعظمت عليها ضررتها بولدها فاشتملت كبشة على عامر بن الطفيل في تلك الليلة فجاءت به أسود أهل زمانه وأنجد أهل زمانه وأفرس أهل زمانه حتى كان مناديه ينادي بعكاظ: هل من راجل فأحمله أو من خائف فأؤمنه»⁽¹⁾.

هذا الأنموذج من الأمثال التي دونها اليوسي، و التي لها قصة مورد وحيدة تمخض عنها المثل، و يلحظ أنه لولا هذه القصة المؤطرة لهذا المثل، ما فهمنا من المثل شيئاً، لكان عديم الفائدة لا نعلم متى و أين نسعمله، مع أنّ ظاهر هذا المثل يمكن أن يُجتهد في فهمه حتى مع غياب القصة، و لكن كلّ اجتهاد يخضع للتأويل، و التأويل له حدود كما يقول (أمبرتو إيـكو)، و من ثمة فلا غنى لنا عن قصة المثل التي تزيل كلّ لبس، و نستطيع معها تداول هذا المثل كلّما تكرر موقف مشابه لموقف قصة المورد فيتم بذلك اسقاط الماضي على الحاضر.

2-2- المثل ذو القصة المزدوجة

أورد اليوسي أمثالا مصحوبة بقصتين تفسيريتين، و رأى أنّ كل واحدة منهما صالحة لتفسير مورد المثل، من ذلك المثل: **خذ من جذع ما أعطاك:**

الأخذ مر و جذع بكسر الجيم وسكون الذال المعجمة اسم رجل، وهو جذع بن عمرو الغساني. وكانت غسان تؤدي إلى ملك سليح، وهي قبيلة باليمن، دينارين عن كل رجل. وكان قابض ذلك سبطة بن المنذر السليحي. فجاء مرة يسأل الدينارين، فدخل جذع منزله واشتمل بسيفه وخرج فضرب به سبطة حتى برد وقال له: خذ من جذع ما أعطاك! وقيل إنه أعطى بعض الملوك سيفه رهنا فلم يأخذه، فضربه حتى قتله، وقال ذلك، فذهب مثلاً يضرب في اغتنام ما يوجد به البخيل.⁽²⁾

إنّ اليوسي قدّم روايتين لمورد هذا المثل، دون أن يرجح إحداها على الأخرى، وإن تكن الرواية فيها تبديل بعض الشخصيات فقط. و مهما يكن فإنّ هذا المثل سيظل ضامراً، لا يُعلم مضربه لو لم يرد هذا السياق بوساطة القصة، إذ سوف لن نعلم من هو (جذع) هذا و ماذا أعطى و ماذا يُؤخذ منه، خصوصاً أنّ كلمة (جذع) قد تلتبس مع جذع شجرة مثلاً. و قد لاحظنا في أثناء بحثنا أنّ أصعب الأمثال و حتى الأشعار تفسيراً، تلك التي فيها أسماء أعلام، أو أسماء أماكن كما هو الشأن في هذا المثل، فما لم يتدخل الشارح بالتنبيه إلى كون هذا أو ذاك إسم

1- ينظر زهر الأكم، ج:1، ص:206.

2- ينظر زهر الأكم، اليوسي، ج:1، ص:68.

شخص أو موضع، يظل المثل أو البيت الشعري طلسمًا من الطلاسم، إذ أنّ أسماء الأماكن و أسماء الأشخاص أو الأعلام لا يمكن العثور عليها في المعاجم، إلا إذا كانت متخصصة مثل معجم البلدان لياقوت الحموي، مع أنّنا لا نعثر فيه على اسم مكان مغمور و غير مشهور. أما أسماء الأشخاص فثمة وفيات الأعيان لابن خلكان، و لكن لا يتناول فيه إلا الأعيان من الناس و المشاهير، و ليس الأشخاص العاديين. إنّ قصة المثل و سياقه هما الوحيدان الكفيلان بفتح كلّ منغلق، و أداء المثل لدوره في المعنى، و المضرب. و نشير أخيرا بخصوص هذا المثل بعينه، بأنّ الميداني لم يورد بشأنه سوى قصة واحدة فقط. (1)

3- قصص المضرب

بخلاف كثير من شراح الأمثال الذين اقتصروا فقط على إيراد القصة التي وُلد المثل من رحمها، فإنّ اليوسي عمد إلى توظيف قصص كثيرة ضُربت فيها تلك الأمثال و السؤال لماذا أورد هذه القصص، و لماذا اعتمد هذه المنهجية في التعامل مع الفن القصصي الخاص بالأمثال؟ و ما دور قصة المضرب ما دام أنّها ليست من يكشف سياق مورد المثل؟ نعتقد أنّ السبب في ذلك مرده إلى أنّ غرضه لا يقتصر على استحضار القصة التاريخية للمثل فحسب بل يتتبع تاريخ ذلك المثل، و يأتي بنماذج قصصية ضُربت فيها تلك الأمثال، لكي يمد المتلقي بأنموذج توظيف واستعمال ذلك المثل، إذ من الجائز أن يكون القاريء غير مستوعب بشكل جيّد لقصة المثل الأولى فيسيء استعمال المثل و يضعه في غير محله و قد يعلن نتائج عكسية لما كان مرجوًا منه، و هذا ما أراده التراثيون بقولهم (لكل مقام مقال) فلا بدّ من توافر ما يدعى مقتضى الحال حتى نوظف مثلا ما. و نستطيع القول إنّ قصص المضرب التي أوردتها اليوسي هي نماذج تطبيقية لاحقة لدروس نظرية سابقة، و نعني بالدرس النظري المثل و قصته التفسيرية. و من نماذج هذه القصص ما صاحب شرح المثل:

أبلغني ريقى.

فبعد أن يشرح المثل شرحا وافيا يقول في معنى هذا المثل و مضربه: يقال: «أبلغني ريقى أي أمهلني ساعة مقدار ما أبلعه ولا تعجل عليّ! يضرب عند الاستمهال في مقام المحاورّة والإكثار من السؤال واستدعاء الجواب حتى يعوق الاشتغال بالجواب عن بلع الريق. والقصد التأخير والتنفيس» (2)

1- مجمع الأمثال، الميداني، ج:1، ص:332.

2- زهر الأكم، اليوسي، ج:1، ص:199.

ثم إنّ اليوسي لا يكتفي بشرح هذا المثل و تبيان مضربه، بل يأتي بـ نماذج و مواقف ضُرب فيها هذا المثل، حيث يأتي بقصة لعبد الملك بن مروان مع ندمائه. ثم يردفها بقصة أخرى عن أبي العباس بن سريج الفقيه الشافعي، و أبي بكر محمد بن دوود الظاهري اللذين تناظرا، إذ يقول فيها: «أبلعني ريقِي! قال: أبلعتك دجلة! وقال له مرة أخرى: أمهلني ساعة! قال: أمهلتك إلى قيام الساعة!». (1) حيث، و بعد أن أورد هذه القصص المضربية هل يبقى هناك غموض لدى المتلقي في تبني هذا المثل، و استعماله أنى شاء، و حيث أراد؟

إنّ اليوسي استعمل في منهجه هذا منطق: (بالمثال يتضح المقال)، فقصصه المضربية أوضحت كلّ مبهم و سنّت طريقة في التعامل الايجابي مع مضارب الأمثال.

إنّ وجود قصة للمثل هو أكثر من ضرورة لأنّ وجود قصة للمثل يعني وجود تاريخ له و ما لم يوجد هذا التاريخ فلا يمكن فهمه في الحاضر و لا التعامل معه في المستقبل لأنّ الحاضر و المستقبل إنّما يبينان على الماضي الذي هو رمز للتاريخ و التاريخ لا بدّ منه حتى في اللغة و الفنون، و ليس في السياسة و الحروب فقط و لهذا «أعاد قدامير للتاريخ دوره بوصفه مدوّنة تضم الإدراكات السابقة، و أصوات الخبرات، فلا يمتلك الفهم إمكاناته الحقيقية الشاملة إذا استبعد هذه الخبرات...، و تطور هذا الأفق عند ياوس الذي ظاهى هذا المفهوم بما أطلق عليه أفق التّوقع أو الانتظار، و هو لديه مدوّنة تضم معايير تدوّق العمل الأدبي عبر التاريخ». (2)

4- أمثال بلا قصص

حوت بطون كتب الأمثال أمثالا سائرة و متداولة لا نجد لها أيّة قصة تفسيرية (*) ولكن هل معنى ذلك أنّها تفتقر إلى السياق الذي قلنا إنّ أكثر من ضروري لاكتمال دورة الخطاب و اتمام عملية التواصل؟

في تقديرنا إنّ خلو هذه الأمثال من القصص لا يعني البتة عوزها إلى السياق الضروري، إذ لو أخذنا المثل: (باتت بليلة حرّة) أو: (باتت بليلة شيباء) و الذي يُقصد بالأول منهما أنّ الرّجل لم يستطع البناء بزوجته، و الثاني عكس ذلك. فهذان المثالان اللذان لا نعثر لهما

1- زهر الأكم. اليوسي ج:1، ص:199.

2- نظرية التلقي، أصول و تطبيقات، بشرى موسى صالح ص:40.

* أغلب هذه الأمثال هي التي على صيغة: "أفعل".

على قصص تفسيرية، لا يعني أنهما مفترقان إلى السياق، إذ السياق لا يقتصر على القصة المصاحبة للصيغة بالمثل، بل يتعداه إلى السياق اللغوي و « هو البيئة اللغوية التي تحيط بجزئيات الكلام من مفردات و جمل وخطاب »⁽¹⁾ و سياق الموقف أو سياق الحال إذ يقول رشيد بلحبيب: « ينبغي التأكيد في البداية على أن الوحدات الكلامية للغة الطبيعية ليست مجرد سلسلة أو خيوط من صنع الكلمات فهناك مكون كلامي يعرض دائماً بالضرورة فوق الكلامي في كل وحدة كلامية محكية»⁽²⁾ ، و ينقل عن الشعراني قوله تعليلاً لذلك: « لأنّ المعنى القاموسي أو المعنى المعجمي ليس كل شيء في إدراك معنى الكلام فثمة عناصر غير لغوية ذات دخل كبير في تحديد المعنى، بل في جزء من معنى الكلام ، و ذلك كشخصية المتكلم و شخصية المخاطب، و ما بينهما من علاقات و ما يحيط بالكلام من ملابسات و ظروف ذات صلة »⁽³⁾ و من أهم من تكلم عن هذا في الغرب (مالينوفيسكي) و (فيرث)، حيث يؤكد مالينوفيسكي على أهمية سياق الموقف، قائلاً: « إنّ الاعتقاد بأنّ المعنى محصور في الكلام مفهوم خاطئ^(*) لأنّ الكلام و السياق عنصران متلازمان يكمل بعضهما بعضاً و لا انفصام بينهما ». ⁽⁴⁾ و معنى هذا « إنّ اللغة ليست صورة للواقع لأنّه يستحيل أن يصف الشخص الواقع و يطابقه باللغة ، لأنّ اللغة نظام رمزي مؤلف من علامات محدودة بزمن و ظروف و أحوال مختلفة »⁽⁵⁾ و هناك أيضاً السياق الثقافي الاجتماعي، و هو الإطار الاجتماعي أو الثقافي الذي ينتمي إليه الكلام .

بعد عرض هذا الكلام النظري الذي أكد على المعنى الشامل لمصطلح السياق و بالرجوع إلى المثليين المضروبين نرى أنّه، و بدون معرفة المنطق الذي انزاح إليه لا يمكن فهم المثل لأنّ كلمة (حرّة)، و كلمة (شياء) لا تنطويان على أيّ معنى^(*) و حتى يتم ذلك ينبغي الرجوع إلى طبيعة تفكير المجتمع و معرفة المصطلحات التي يستعملها للتعبير عن شؤون الحياة، و الحياة الاجتماعية هنا بخاصة حتى يتسنى لنا فهم المثليين. و هذا هو السياق الثقافي و الاجتماعي.

1-http://www.angelfire.com/tx4/lisan/lex_zam/dilalahessays/discourse.htm

2-http://www.angelfire.com/tx4/lisan/lex_zam/dilalahessays/discourse.htm

3-م.ن.

* من الأمثال الشائعة في هذا المجال: يجب أن تقرأ ما بين السطور.

4-م.ن.

5-م.ن.

* إلا أن يكون لوضع المعجم سابق علم بالسياق، ففي هذه الحال يكون عدل بالكلمة و شرحها بحسب علمه، لا بحسب ما يمليه عليه منطق اللغة.

إنّ الأمثال المفتقرة إلى قصة لا يعني أنّها خالية من السياق، و لو أخذنا المثل: (أجود من حاتم) فبالرغم من مجيء هذا المثل على وزن (أفعل) و هو من الأمثال التي تفتقر إلى قصة، لكن لا يستغرب أن تكون له قصة أو سياق ما و من أيّ شكل كان كالتّي قيل فيها إنه ذبح أعزّ خيوله من أجل إكرام ضيفه، بالرغم أنّ أغلب هذه الأمثال كانت نتاج حالات تأمليّة و انطباعية قد تصدر من أيّ كان. فمثل هذه الأمثال: «أحرص من نملة»⁽¹⁾، و «أحرّ من القرع»⁽²⁾، و «أحذر من غراب»⁽³⁾.

فهذه الأمثال (التي تفتقر إلى قصة) إما أنّها جاءت من تأملات العربي لما يحيط به من مظاهر الطبيعة و أحوال بيئته الطبيعية و الاجتماعية، أو يُلجأ أحيانا إلى نسج قصة خيالية لتتوائم مع طبيعة المثل على نحو ما لوحظ في قراءة المثل (أحرّ من القرع).

ليس غريبا أن يكون لبعض الأمثال قصص و لكنّها ضاعت لأنّها كانت تُداول شفاهيا» و الثقافة الشفاهية لم توفرّ لنفسها ظروفًا تساعد على حماية نصوصها الأدبية»⁽⁴⁾. و مهما غابت قصة المثل فإنّ سياق من السياقات لا بدّ حاضر، إذ بدونه لا تتم عملية التواصل كما أسلفنا «لأنّ العلامة لا تعمل لوحدها، بل بادراجها في سياق متعدد المستويات فموقعها هو الذي يحدد وظيفتها مثل عقارب الساعة»⁽⁵⁾. إنّ السياق يضبط المعلومة و الرؤية، و ينأى بالخطاب عن التأويلات الإعتباطية التي لا سند سياقي لها.

إنّ اليوسي بكتابه هذا قد أضاف لجمع الأمثال و شرحها بعدا ثقافيا و رؤيويًا، بحيث كشف للمتلقّي، كيف يمكن للمثل أن يستغلّ الأجناس الأدبية، و غير الأدبية و في تكثيف الإنتشار و التداول و التبني.

1- زهر الأكم، ج:2، ص:113.

2- المرجع نفسه، ص:112.

3- المرجع نفسه، ص:105.

4- <http://www.nizwa.com/articles.php?id=3333> (مجلة نيزوى)

5- صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، مطابع إفريقيا الشرق، الدار البيضاء(د.ت)، ص:102.

خاتمة:

بعد هذه الصحبة، التي قضيناها مع المجلدات الثلاثة الموسومة بـ " زهر الأكم في الأمثال و الحكم" لأبي الحسن اليوسي و التي كانت في الحقيقة صحبة مع كثير من العلوم و الفنون، و ليس مع الأمثال و الحكم فحسب و بعد قراءة ما قرأه اليوسي من المثل العربي يمكننا أن نعدد بعض النتائج التي توصلنا إليها، وهي:

- إنَّ اليوسي عرّف المثل العربي تعريفاً يختلف عن تحديدات جميع من سبقه من الشراح و جامعي الأمثال، حيث نقض تلك التعاريف النمطية واحدة تلو الأخرى و بنى عليها تحديداً يستجيب لحقيقة و منطق المثل. و أهم ما توصل إليه أنّ قولاً ما يمكن أن يكون مثلاً حيناً و حكمة حيناً آخر، بحسب الحيثية وأنّ الرؤية التي يراها الإنسان في منامه قد تكون بمثابة (ضرب المثل) من الله للإنسان ، مع العلم أنّ للمثل و الرؤية قاسماً مشتركاً هو كونهما (رمزاً) أو بعبارة أخرى الاشتراك في الطبيعة الرمزية.

- في قراءاته اللغوية، و المعجمية بالذات حرص على حشد أكبر قدر ممكن من المرادفات و الشروح و حتىّ أضداد الألفاظ ليُجعل من مصنفه، ليس مجرد حاشية لمتن بل معجماً لغوياً ثرياً، لغاية تعليمية تربوية و تثقيفية، في وقت انكشفت فيه العلوم و ضعفت فيه اللغة و جفّت القرائح.

- أشار في أثناء قراءته الصرفية للأمثال إلى قضية الشذوذ الواقعة في بعض الأمثال و وقف بإزائها مفترضاً لثلاث فرضيات لا فرضية واحدة كما فعل سواه: و هي: اللحن في اللغة- أو الخطأ في الرواية- أو الشذوذ الذي يُحفظ و لا يُقاس عليه.

- أولى للقراءة النحوية أهمية لم يولها لغيرها من القرائح، لطبيعة تكوينه اللغوي و لكون هذا العلم قريب الصلة بالمنطق الذي كان لليوسي حظ و فير منه. و كذا لرأيه بأنّ للنحو دوراً فاعلاً في استكناه معاني الأمثال و دلالاتها.

- إنَّ القراءة البلاغة لم يكن لها كبير اهتمام في دراسته نظراً لطبيعة المثل المتسمة بالقصر و قلة الخيال و مع ذلك أورد بعض الشواهد الجيدة التي لا يتوصل إليها إلا بعد بذل جهد فكري كبير، كما عني بالتورية التي، رأى في جانبها البلاغي وسيلة للتخلص من المواقف المحرجة.

- ركّز على المثل الشعري و أشاد به ، و رأى أنّ المثل في الشعر يضمن له الديمومة و السيرورة بخلاف المثل النثري الذي قد يطويه النسيان و قلة التداول.

- إنَّ العلاقة بين الأجناس الأدبية الأخرى علاقة تناصية تكاملية و تفاعلية، خاصة منها القصة والشعر. فالقصة تلده و الشعر ييسره و يسيِّره.
- إنَّ المثل يتناول كلَّ ما يتعلق بمناحي حياة الإنسان، من أخلاق و اجتماع و سياسة و اقتصاد، و دين و دنيا.
- إنَّ اليوسي فسّر بعض الأمثال و قاربها مقاربات لم يتفطن إليها سواه، و نعني بذلك التفسير النفســــــــي و الفلسفي للمثل إنَّ مثل هذه المقاربات بحاجة إلى تحولات و وسائل أكثر دقّة و معنى هذا أنّه سبق زمانه بحوالي أربعة قرون.
- عني بما اصطلح عليه بعلم التأتيل ETYMOLOGIE، أو أصول الكلمات و هو أمر قلما أعار له غيره اهتماما.
- تحدث اليوسي عن قضية الاحتمال في معاني الأمثال أو التأويل في معاني الأمثال و هي قضية تعرض إليها الميداني إلا أنّ طريقة التناول، و المعالجة و النتائج المتوصل إليها تختلف ، فأراء اليوسي أكثر دقة و عمقا.
- الثقافة الموسوعية التي يتمتّع بها صاحب المدونة كان لها بالغ الأثر في إيضاح الخلفية المرتبطة بمعاني المثل، و أصبح بثقافته تلك أبرز عنصر في دورة الخطاب، إذ بوساطة ثقافته تلك لجأ إلى تنشيط البؤر الدلالية و تشقيق أغلفة الألفاظ للوصول إلى طبقات المعاني.
- إنَّ كتاب اليوسي لا يزال مدونة دسمة للبحث و الكشف و المساءلة ، و منها: قوله عن الرّضاعة إنّها تغيّر الطباع، و قد وجدنا لقوله أسانيد تدعّمها حتّى من علم الطبيعــــــــة و الأحياء. و كذا حديثه عن كثير من طباع الحيوانات، و الطيور كالطاووس و الهدد و الحمام و الغراب، و هي ذات أسانيد في كثير من العلوم قديمها و حديثها. و كذا حديثه عن الأمثال الموضوعة على ألسنة العجموات (الحيوان و الشجر).
- و حديثه عن الأمثال العامية المفصّحة و عن الأمثال المصنوعة و عن موضوع الصوفيــــــــة و أهل الكرامات. و حديثه عن الصدق الفني و الأخلاقي و ظاهرة الاتّباع في الأمثال و ما إلى ذلك من مواضيع تطرق إليها مما يصلح أن يكون كلّ واحد منها موضوعا مستقلا.

ملحق: "نبذة عن الكاتب و الكتاب"

نظرا لأهمية معرفة القاريء لشخصية اليوسي لعلاقة ذلك بالبحث فإننا نورد هذه النبذة القصيرة عنه:

إن مؤلف (زهر الأكم في الأمثال و الحكم) هو: العلامة الحسن بن مسعود ،نور الدين أبو علي اليوسي نسبته إلى قبيلة بني يوسي البربرية ،تقلب في عدة مناطق مغربية طلبا للعلم والمعرفة، فحل بمنطقة دكالة ومراكش وسوس قبل أن يقصد الزاوية الدلائية في سنة(1060هـ/1650م) ويستقر بها ما يربو عن عشرين سنة، طالبا للعلم أولا ومنتصدا لمهمة التدريس ثانيا. قدم الشيخ اليوسي إلى مدينة فاس عام (1079هـ) لينتقلد منصب التدريس بجامع القرويين ثم بالمدرسة المصباحية. ولم يبرح مدينة فاس حتى حدود سنة 1084هـ. وهو من أكابر علماء المغرب في عصره. فقيه و محدث و لغوي و أديب و مؤرخ و صوفي فاضل قال في حقه صاحب الرحلة العياشية :

من فاته الحسن البصري يدركه
فليصحب الحسن اليوسي يكفيه

تأثر منهجه التدريسي بشيخه محمد بن ناصر، شيخ الزاوية الناصرية الشاذلية بتمكروت (ت 1085هـ/1674م)، في تلقين العلوم؛ وهي منهجية تقتصر على تفهم النص وتحليل الشرح. أخذ عنه جم غفير من الطلبة. وتميزت حلقاته العلمية بكثرة المقبلين عليها من طلبة العلم. يقول ابن زاكور -أحد تلامذة اليوسي- في مقدمة قصيدة شعرية في فضل اليوسي على طلبة فاس خاصة:

عن نور هديك ثغر الدهر مبتسـم
يا واحدا وردت من بحر أمـم
هشت للقياك فاس إذ حلت بها
وفاس لولا سنا و جودك عـدم

تميز الحسن اليوسي في جميع أعماله وكتاباتة ومؤلفاته الغزيرة التي تركها بأسلوبه الخاص من الوقوف على مواضيع طريفة لا صلة لها بالشروح والحواشي، التي كانت تغطي على مؤلفي عصر الانحطاط. إذ أراد الرجوع إلى ينابيع الثقافة الإسلامية في عهدها المزدهرة الأولى، يستقي منها بجهده الشخصي ويضيف إليها من فكرة وكدحه وكده ما يغني التراث العربي الإسلامي ويجدده ويحبه إلى النفوس .

و من أبرز تلامذته ممن أصبحوا من فحول العلماء: أبو سالم العياشي وأبو الحسن النوري وأبو عبد الله التازي وأبو عبد الله ابن زاكور وأحمد الولاوي ومحمد العربي القادري ومحمد بن عبد السلام بناني والحسن بن رحال المعداني بل. إن من طلبة العلم ممن أخذ عنه كانوا من خارج المغرب. فقد استدعاه علماء من صفاقس وطرابلس الغرب لإجازتهم أثناء أدائه مناسك الحج عام (1101هـ). ودعا له شيخه ابن ناصر قائلاً: "جعلك الله عينا يستقي منك أهل المشرق والمغرب".

توفي أبو الحسن اليوسي سنة (1102هـ) بعد أن قدّم خدمة جليلة للثقافة العربية والإسلامية. وظل يعتمد عليها الباحثون في أبواب من الثقافة العربية والإسلامية.

لقد تميز هذا العالم الجليل بثقافته الموسوعية، إذ كان له إلمام واسع بعلم التفسير والحديث والفقه والأصول والتصوف واللغة والأدب والبلاغة والمنطق والحساب وكان إنتاجه العلمي محل إشادة العلماء في الشرق والغرب قديماً وحديثاً. ألف كتباً عديدة تجاوزت الأربعين مؤلفاً بعضها ما زال مخطوطاً. من تلك المصنفات:

- "فتح الوهاب فيما استشكله بعض الأصحاب من السنة والكتاب": كتاب في علم التفسير.
 - "البدور اللوامع في شرح جمع الجوامع": في أصول الفقه.
 - "مشرب العام والخاص من كلمة الإخلاص في تفسير كلمة لا إله إلا الله": كتاب في علم التوحيد.
 - "عقد جواهر المعاني في مناقب الغوث عبد القادر الجيلاني": في علم التصوف.
 - "زهر الأكم في الأمثال والحكم": كتاب في قواعد اللغة العربية وآدابها.
 - منظومة في العبادات في علم الفقه.
 - رسائل أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي، تأليف فاطمة القبلي.
- يعد كتاب (زهرة الأكم في الأمثال والحكم) من أشهر مؤلفاته وهو يشتمل على ستة وستين باباً في سمطين. السمط الأول وما يلتحق به، في مقدمة وخاتمة وأربعة وثلاثين باباً وتسعاً وعشرين باباً في الأمثال، رتبت على حروف المعجم. أما الأبواب الخمسة التالية، فهي في الأمثال التركيبية والأعيان والأمثال القرآنية وأمثال الحديث والأبيات السائرة. أما السمط

الثاني فيشتمل على الحكم وما يلتحق بها في اثنين وثلاثين باباً، تسعة وعشر ون في الحكم المرتبة على حروف المعجم، وفي الأبواب الثلاثة الأخير ة طائفة في الحكم المجموعة وطائفة من النوادر .

إنّ أبا علي نور الدين الحسن اليوسي، مات قبل أن يتم إنجاز هذا المشروع الضخم، غير أنّ ما تركه من هذا العمل، يشتمل على مادة ضخمة منحها اليوسي من عقله وأدبه وعلمه ووقته، وما دل فيها على حسن الصيغ. والقسم الذي كان قد كتبه يشمل على أربعة عشر باب في الأمثال، بالإضافة إلى مقدمة وخاتمة. وقد بدأ في تقصيه للأمثال وأخبارها وما يتصل بحياة أشخاصها أنموذجاً للعالم الموسعيّ الغني بالمعرفة والدراية بشؤون وشجون التاريخ الأدبي عند العرب والمسلمين وهذا الأسلوب المغربي المجدد في الأمثال و قد قام كلّ من محمد حجي و محمد الأخضر بتحقيقه، كما قاما بمقارنة بين ما كتبه الميداني واليوسي عن المثل، و بقراءة ما دونه وبالععمل على فهرسة مواضعه، من أمثال فصيحة و عامية و أشعار و أعلام و إعادة إبرازه للعامة والخاصة لتسهيل الاطلاع عليه، و الإفادة منه.

قائمة المصادر و المراجع

القرآن الكريم.

أولاً-باللغة العربية:

- 01 - أبو الفضل أحمد بن حمد النيسابوري (الميداني): مجمع الأمثال، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت، (د.ت).
- 02 - أحمد الهاشمي: جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء العرب، تح: لجنة من الجامعيين منشورات مؤسسة المعارف بيروت،(د.ت).
- 03 - إنعام الجندي: الرائد في الأدب، ج:1، دار الرائد العربي ط:2 بيروت1986.
- 04 - أحمد الشنقيطي: شرح المعلقات العشر، دار الأندلس، ط 5 بيروت 1983.
- 05 - آمنة بلعلی: أسئلة المنهجية العلمية، دار الأمل للنشر و التوزيع، تيزي وزو 2005.
- 06 - أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط6، (د.ت).
- 07 - إميل بديع يعقوب، معجم الإعراب و الإملاء، مطبعة الرهان الرياضي الجزائري،(د.ت).
- 08 - بشرى موسى صالح: نظرية التلقي، أصول و تطبيقات، المركز الثقافي العربي ط1،الدار البيضاء، 2001.
- 09 - الحسن اليوسي: زهر الأكم في الأمثال والحكم تح: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الثقافة، ط:1الدار البيضاء، (د.ت).
- 10 - حسين نصار، دراسات لغوية، دار التراث العربي، بيروت،1989.
- 11 - أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، العمدة، ج: 1، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط4، بيروت.
- 12 - جميل صليبا: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت1978.
- 13 - أبو عثمان الجاحظ، البيان و التبيين، ج 2، تح موفق شهاب الدين، دارالكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998.
- 14 - أبو عبد الله الحسين الزوزني: شرح المعلقات السبع، مكتبة المعارف، ط 5، بيروت 1985.

- 15 - أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، دار الكتب العلمية للنشر، بيروت 1996.
- 16 - رودلف زلهاميم. الأمثال العربية القديمة، ترجمة: رمضان عبد التواب، و سعيد بنكراد، دار الكلام للنشر والتوزيع، الرباط 1990.
- 17 - ابن رشيق، العمدة، ج:1، دار الجيل، ط:4، بيروت 1972.
- 18 - سمير عبدة، التحليل النفسي للأقوال المأثورة، ط:1، دار علاء الدين، دمشق 1994.
- 19 - صلاح فضل: مناهج النقد المعاصر، مطابع إفريقيا الشرق، الدار البيضاء (د. ت).
- 20 - صلاح فضل/بلاغة الخطاب و علم النص، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت 1992.
- 21 - ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر، ج: 1، منشورات دار الرقاعي، ط: 2، الرياض 1983.
- 22 - عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، تح: مصطفى شيخ مصطفى، و ميسر عقاد. مؤسسة الرسالة ناشرون، ط1، بيروت، 2004.
- 23 - علي الجارم، و مصطفى أمين: البلاغة الواضحة مع دليلها. ديوان المطبوعات الجامعية المطبعة الجهوية بوهران. (د. ت).
- 24 - عمر عروة، النثر الفني القديم، دار القصة للنشر الجزائر 2000.
- 25 - عبد الله إبراهيم، التأويل و السياقات الثقافية، منشورات الإختلاف، ط 2، الجزائر 2005.
- 26 - قادة بوطارن: الأمثال الشعبية الجزائرية، ترجمة: عبد الرحمان حاج صالح. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر. (د. ت).
- 27 - القاموس الجديد، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ط: الثالثة، 1982.
- 28 - محمد الماكري، الشكل و الخطاب/مدخل لتحليل ظاهراتي، المركز الثقافي العربي، ط 1، بيروت 1991، ص: 252.
- 29 - محمد سعيد اسبر و بلال جتيد، الشامل معجم في اللغة العربية و مصطلحاتها، دار العودة ط، 2، بيروت، 1981.
- 30 - المنجد في اللغة و الأعلام، دار المشرق بيروت، ط: 26. (د. ت).

تلقي المثل في كتاب زهر الأحكام في الأمثال والحكم قائمة المصادر و المراجع

31 -ناظم عودة خضر، الأصول المعرفية لنظرية التلقي، دار الشروق، عمان 1998.

32 -أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال، ط2، دار الفكر، بيروت 1988.

33 -وائل بركات و غسان السيد و نجاح هارون ، اتجاهات نقدية حديثة و معاصرة، منشورات جامعة دمشق، دمشق 2004.

ثانيا:المجلات و الدوريات:

01- رولان بارط:درس السيميولوجيا، مجلة الكرمل، عدد 18سنة 1985.

02- فاضل ثامر، القصيدة و النقد،سلطة النص أم سلطة القارئ،مجلة أقلام،ع1،بغداد 1988.

ثالثا: المراجع باللغة الأجنبية:

Le petit Robert. Dictionnaire le Robert / VUEF, 2001. 27, Rue de la glacière, Paris.

رابعا:المواقع الإلكترونية:

01-<http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AA%D8%A3%D8%AB%D9%8A%D9%84>.

02- http://www.angelfire.com/tx4/lisan/lex_zam/dilalahessays/discourse.htm

03-<http://www.nizwa.com/articles.php?id=3333>(مجلة نيزوى)

فهرس الموضوعات

1.....	مقدمة
5	تمهيد
	في المصطلح و الوظيفة و الإجراء
7.....	01- مفهوم المثل اللغوي و الاصطلاحي في كتب الأمثال
11.....	02- طبيعة المثل عند اليوسي
20.....	03- بين المثل و الحكمة
25.....	04- وظيفة المثل
	الفصل الأول
28	القراءة اللغوية للمثل
29.....	01- المفردة اللغوية
41.....	02- القراءة الصرفية
46.....	03- القراءة النحوية
52.....	04- القراءة البلاغية
	الفصل الثاني
61	معاني الأمثال
62.....	01- أضداد الأمثال
63.....	02- الضد بالمجاز
64.....	03- التفسير النفسي للمثل
68.....	04- مصطلح القياس
69.....	05- المعاني الأخلاقية للأمثال
72.....	06- المعاني الاجتماعية
76.....	07- الاحتمال في معاني الأمثال

81 08- الأمثال الظاهرة و الأمثال الضامرة.....

الفصل الثالث

85 علاقة المثل بالأجناس الأدبية

87..... 01- خدمة الشعر بالمعاني المعجمية للمثل.....

88 02- خدمة المثل بالشعر.....

92 03- خدمة الشعر بالمثل.....

94 04- خدمة المثل بالنثر الفني.....

96 05- خدمة المثل بالقصة و السيرة.....

97 06- خدمة المثل بالأمثال.....

99 07- خدمة المثل الفصيح بالمثل العامي.....

الفصل الرابع

100 القراءة السياقية

101 01- دور السياق في خدمة المثل.....

103 02- قصص الأمثال.....

103 02-1- المثل ذو القصة المنفردة.....

104 02-2- المثل ذو القصة المزدوجة.....

105 03- قصص المضرب.....

106 04- أمثال بلا قصص.....

109 خاتمة.....

111 ملحق.....

114 قائمة المصادر و المراجع.....

117 فهرس الموضوعات.....